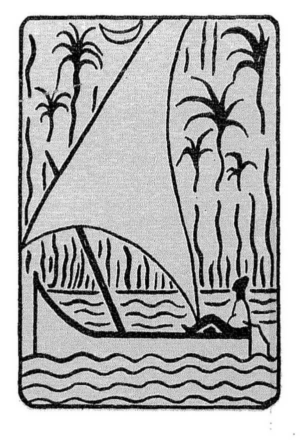
ستراتيس تسيركاس

قصة

نور الدين بومبة

ترجمة

يني ميلاخرينودي



مراجعة

الدكتور نعيم عطية

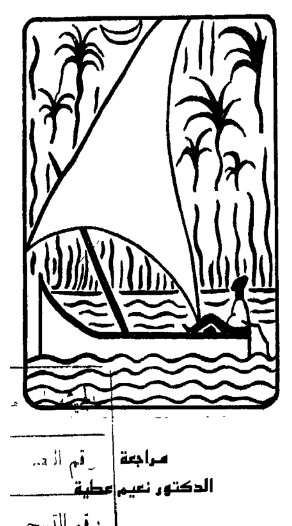
ستراتيس تسيركاس

قصة

نور الدين بومبة

ترجمة

يني ميلاخرينودي



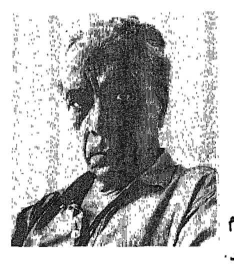
مراجعة

الدكتور نعيم عطية

أهدي هذه الترجمة
إلى أحبائي ماريا - نيقولا - دنيا

ΕΤΑΙΡΕΙΑ ΦΙΛΩΝ ΕΡΓΟΥ
ΣΤΡΑΤΗ ΤΣΙΡΚΑ
ΜΥΚΗΝΩΝ 3 ΚΑΛΛΙΘΕΑ
Τ.Κ. 176 73 - ΑΘΗΝΑ

ستراتيس تسيركاس كاتب الثورة والحرية



يانيس تسيركاس هو الاسم المستعار لينى خدزياندريو الذى ولد عام ١٩١١ بالقاهرة لأسرة يونانية متواضعة تسكن حى عابدين وتقيم على وجه التحديد بشارع عبد الدايم بذلك الحى الشعبى من أحياء القاهرة وكان الصبى يقضى الإجازة الصيفية بالاسكندرية عند جده لأمه ستماتارى الذى كان يعمل بستانياً بحى الرمل .

وفيما يلى ترجمة موجزة لحياة الكاتب وأعماله .

عام ١٩٢٧ : نشرت أول محاولة قصصية له بمجلة أدبية يونانية كانت تصدر بالقاهرة .

عام ١٩٢٨ : تخرج من المدرسة العبيدية اليونانية حاصلا على دبلوم تجارة وعين بالبنك الأهلى المصرى .

عام ١٩٢٩ : ينتقل لكى يعمل بصعيد مصر فى ابوتيج وديروط كمحاسب فى البداية وكمدير بعد ذلك فى محالج القطن . عمل بصعيد مصر عشر سنوات .

عام ١٩٣٠ : أول نشر له فى مجلة باليونان ، كما نشرت أول

قصيدة له وبعض ترجماته فى مجلات يونانية بمصر واليونان . وفى نفس العام تقابل مع شاعر الإسكندرية الكبير كفافيس .

عام ١٩٣٣ : توفى والده . تنتقل العائلة إلى الإسكندرية حيث كان يحضر اليهم من الصعيد لقضاء الاجازة .

عام ١٩٣٦ : تنشط حركة التنظيمات الشيوعية فى انحاء العالم . من دعائم التنظيم اليونانى نجد ينى خدزياندريو .

عام ١٩٣٧ : تزوج من انتيجونى كيراسوتى وسافر معها إلى تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا والنمسا وفرنسا واليونان .

يشترك فى المؤتمر الثانى للكتاب لحماية التراث ضد الفاشية بفرنسا فى هذا المؤتمر يكتب مع لانجستون هيوز «قسم» الشعراء إلى جارثيا لوركا . وبمساعدة اراجون يوزع هذا القسم فى المؤتمر ويوقعه أربعون من الكتاب العالميين .

فى نفس السنة تنشر أول دواوينه بعنوان «فلاحون» . فى هذا الكتاب يختار ينى خدزياندريو نفسه اسم شهرته ستراتيس تسيركاس .

عام ١٩٣٨ : ينشر ديوانه الثانى بعنوان «رحلة شعرية» .

عام ١٩٣٩ : يقيم بالاسكندرية ويعمل مديرا لمصنع دباغة جلود . عمل فى هذا المصنع حتى يوم مغادرته مصر .

عام ١٩٤٢ : تصدر صحيفة يونانية من أهم الصحف المناوئة للنظام الفاشى . ضمن سكرتيرية التحرير نجد سترايتس تسيركاس . خوفاً من انتصار روميل يذهب إلى فلسطين مع زوجته . وفى شهر نوفمبر من نفسى العام يعود إلى الإسكندرية .

عام ١٩٤٣ : نشاط مكثف ضد الإحتلال الالمانى لليونان وضد الحرب عموماً .

عام ١٩٤٤ : تنشب حركة ثورية داخل جيش اليونان المرابط بالاسكندرية ضد الملكية ولكن سرعان ما تم اخمادها ، ترجم الكاتب مرارته لهذا الحدث فى مقالة نشرت بإحدى المجلات . فى نفس العام تنشر أول مجموعة قصصية له .

فى سنوات الحرب يكتب ويراسل مجلات وصحفاً كثيرة فى مصر واليونان .

عام ١٩٤٦ : تنشر قصيدته «الوداع الأخير» .

عام ١٩٤٧ : تنشر مجموعته القصصية الثانية تحت عنوان

«شهر ابريل هو أكثر صلابة» .

عام ١٩٥٤ : تنشر مجموعته القصصية الثالثة «تحت عنوان «نومة الحصاد»

عام ١٩٥٥ : يبدأ كتابة دراسته لشاعر الاسكندرية كفافيس .

عام ١٩٥٦ : يكتب قصته «نـور الديـن بومبة» وفى ذلك يكتب الكاتب ميجل ديدية : «القصة كتبت فى عشر أيام أثر تأميم قناة السويس وذلك خلال فترة الإنتظار والقلق من الهجوم المضاد من قبل الدول التى تحمى الاسهم الأوروبية بشركة القناة فى أغسطس من نفس العام مع الدكتور إراكليس ماسخا والرسام اريسوميتى انجلوبولوس يوجه نداء إلى المثقفين الانجليز والفرنسية بمنع العدوان والاعتراف بحقوق مصر السيادية .

عام ١٩٥٨ : تنشر دراسته «كفافيس وزمنه» .

عام ١٩٥٩ : يحصل على جائزة الدولة عن عمله «كفافيس وزمنه»

عام **١٩٦١ : ينشر «النادى» وهى الجزء الاول من ثلاثيته الروائية «مدن بلا حكم» . يطرد من الحزب الشيوعى بسبب هذا الكتاب . فى شهر ديسمبر من نفس العام تتوفى والدته .**

عـام ١٩٦٢ : ينتشر «ارياغنى» وهى الجزء الثانى من ثلاثيته الروائية

عام ١٩٦٣ : يؤمم مصنع دباغــة الجلود الـذى يعمل بـه ، يترك مصـر ويقيم بأثينا ويعمـل بصحيفة «تاخيذرومس».

عام ١٩٦٥ : ينشر «الوطواط» الجزء الاخير من ثلاثيته الروائية الشهيرة .

عام ١٩٦٧ : تمنع الحكومة العسكرية الديكتاتورية فى اليونان نشر ثلاثيته .

عام ١٩٦٨ : ينتشر عدد من ترجماته .

عام ١٩٧١ : تنشر دراسته «كفافيس السياسى» .

عام ١٩٧٢ : تفوز ثلاثيته فى فرنسا بجائزة أحسن عمل روائى أجنبى .

عام ١٩٧٣ : تترجم إلى الفرنسية قصة «نور الدين بومبه» تحت عنوان «رجل النيل» بقلم السيدة كاترين لروڤر وفى نفس العام تنشر «يوميات الثلاثية» .

عام ١٩٧٦ : تنشر قصة «الربيع الضائع» وهى الجزء الأول من ثلاثيته الجديدة التى لم يتمها .

عام ١٩٧٨ : تنشر كل قصصه فى كتاب واحد تحت عنوان «القصص».

عام ١٩٨٠ : فى ٢٧ يناير توفى الكاتب العظيم كما أنه خلال
حياته الحافلة نشر عدد كبير من الدراسات التى
قام بها لكتاب وشعراء يونانيين ، وترجمات كثيرة
قام بها لاعمال أدبية أجنبية لم يسعنا المكان
لذكرها .

عـن القصـة

قصة «نور الدين بومبة» من أجمل قصص ستراتيس تسيركاس .

وقد استعان الكاتب فيها بأسلوب جديد عليه ولكنه وظفه توظيفاً جيداً لخدمة القصة . فقد استعمل الكاتب فى هذه القصة اسلوب الصحفى الذى يستمع إلى حديث شخص عن بعض الاحداث المعنية وفى نفس الوقت يحكى عن تجربته ومعرفته هو . لتلك الاحداث ذاتها .

فالراوى على معرفة شخصية بابطال قصته ماعدا بعض الشخصيات التى لم تكن موجودة بديروط حينما كان يعمل هو هناك وبهذه الطريقة نتعرف على شخصيات القصة من وجهتين : الأولى وجهة نظر الكاتب ، أى المثقف الذى يرى الأمور على نحو قد يختلف عن وجهة نظر الأسطى بوليڤيو ، العامل البسيط ، والعاطفى الصريح .

ومما هو جدير بالذكر فى هذه القصة اننا بصدد تحليل للحالة الإجتماعية فى منطقة من الصعيد وفى اعوام محددة هى اعوام ثورة ١٩١٩ والاعوام التى سبقتها وتلتها ايضاً . والتحليل الذى تتضمنه القصة يؤدى من وجهة نظر اجنبيين عاشا فى خضم احداث هذا المجتمع المصرى فهما ينتقدان الإحتلال البريطانى

لمصر والإستغلال الاجنبى لها حتى ولو كان هذا الاستغلال يأتى من مواطنٍ يونانى مثلهما .

وهنا ستراتيس تسيركاس يدافع عن نظرته فى العدالة الإجتماعية ينتقد قلة من اليونانيين جرفهم حبهم للمال ويناصر أغلبية اليونانيين الذين عملوا وانتجوا فى هذا البلد كأنه بلدهم أيضاً .

وفى هذه القصة نرى ملحمة شعب يقاوم من أجل حريته . وقد كان نور الدين بومبه مجرد مواطن عادىٍ ، ولكن بسبب اعتداءات الانجليز ، واستفزازهم يتحول من مجرد مراكبى مسالم إلى انسانٍ ينتقم لشرفه وعرضه ، ويلتحم انتقامه بالاحداث الوطنية التى مر بها الشعب كله لنيل استقلاله ، ويصبح فى النهاية بطلاً يقسم الناس باسمه ، وما عادوا يصدقون أنه مات ، رغم أن الانجليز اعدموه فى سجن اسيوط فعلاً ، وذلك لأن الشعب يمضى متشبثاً وبالرمز والأمل .

وفى تأكيد من جانب الكاتب لحبه لهذا الشعب ، ومشاركته لقلقه وتطلعاته واحلامه ، فهو ليس نضالاً مصرياً فحسب ، بل هذا نضال الشعوب المحبة للحرية والسلام جميعاً، نرى العامل البسيط . الاوسطى بوليڤيو اليونانى يشارك شعب ديروط نضاله ، ويرفض روزاكيس مواطنه ورب عمله . وقد كان هذا امراً طبيعياً ، فقد كتبت هذه القصة فى الايام العشرة الأولى لاعلان تأميم القناة فى

١٩٥٦ . وقد كانت تلك اوقات عصيبة لما شابها من انتظار قلق لاحتمالات ردود افعال الدول الاجنبية الاستعمارية . والكاتب كيونانى ولد وعاش فى مصر يعترق بحقها فى تقرير مصيرها ، واعلاء سيادتها على ارضها وقد ناضل الكاتب من أجل ذلك بما كتبه من مقالات آنذاك وأيضاً من خلال قصته هذه وقد بعث عام ١٩٥٦ بنداء إلى مثقفى فرنسا وإنجلترا لحث دولتيهما على وقف العدوان ، والاعتراف لمصر بحق تقرير المصير .

هذا هو ستراتيس تسيركاس الكاتب الذى عاش حياته مناضلاً مـن أجل الحرية ، مدافعاً عنها ضد كل . تهديد نتعرض له ، وقد كان أقوى اسلحته فى هذا قلمه وكلمته الأبية ، التى انتشت بحب مصر ، والعرفان بالجميل لها .

ي . م .

الفصل الأول

تذكرت الاسطى بوليفيو عندما بدأ جمال عبد الناصر يوزع السلاح على الشعب . كان الاسطى بوليفيو يعرف قصة كان يحتفظ بها لنفسه ولم يكن يريد أن يحكيها لى ، وفى كل مرة كان يقول «دعك من هذه القصة . لى زوجة وأولاد . ربما لو تغيرت الاحوال سوف أحكيها لك» .

رجوته أن يحكيها لى أكثر من مرة . كانت قصته هذه تتعلق بثورة ١٩١٩ هذا كل ما كنت اعلمه ، ولكنه كان يرفض باصرار . ثم مضيت بعد ذلك إلى صعيد مصر للعمل هناك . ومرت سنوات ولكن هذه القصة ظلت تشغلنى ومرت عشرون سنه وفى عام ١٩٥١ بدأت مصر تطالب بجلاء الإنجليز . وقامت حينذاك مظاهرة اشترك فيها نصف مليون متظاهر . اشتدت لهفتى لسماع قصة بوليفيو الذى كان قد ترك العمل بالصعيد واصبح يعمل الآن بالغرب من الإسكندرية . ذهبت لمقابلته ، وحكيت له المظاهرة . وصفتها له مستثيراً اياه بمزيد من التفاصيل وسألته « ماذا تخاف الآن ؟ »

هز رأسه الصلعاء وقال «كبرت لكنك لاتفهم شيئاً بعد »

« لماذا يا بوليفيو ؟ »

سألنى « هل رأيت اسلحة فى المظاهرة ؟ »

أجبت «أجل ، رأيت»

« من كان يحملها ؟ »

قلت له «الشرطة»

« ومن ايضاً ؟ »

«الجيش»

« من يتحكم فى الشرطة والجيش ؟ »

«الحكومة»

« ومن يتحكم فى الحكومة ؟ »

فهمت إلى أين يريد أن يصل بكلامه ، وأجبته

«فاروق»

« ومن يتحكم فى فاروق ؟ »

«الإنجليز»

فقال لى « فهمت الآن ؟ »

حاولت أن أقنعه بطريقة أخرى . قلت له : «الناس تموت بين لحظة وأخرى يا أسطى بوليفيو ، فلو انتظرنا حتى يحمل الشعب سلاحه قد نكون فى عداد الأموات آنذاك ، وتضيع القصة. »

دعك من هذه الالاعيب . إنى أكبرك بعشرين عاماً فهل سنموت معاً ؟ ربما لا يطول بى العمر كي أرى الشعب يهب حاملاً سلاحه . أما أنت فبالتأكيد سترى ذلك . زرعت البذرة فى أرض خصبة وستنبت . وعندما يحين الوقت سنركب القطار وتذهب إلى هناك . الجميع يعرفك فى ديروط . وستعرف القصة من أهلها .

سوف تتكلم الناس بحرية . وسوف تلتقط التفاصيل من هذا وذاك ، فما الذى لن تعرفه اذن ؟ سرًى أنا ؟ انك لن تكون بحاجة اليه بعد أن أموت»

تركته وأنا حزين . ولم أره خمس سنوات ، لكن قررت الآن أن أحاول للمرة الأخيرة . كنت قد نسيته لكن أدركت الآن كم كانت صحبته وسهراته والقصص التى كان يرويها تبقى فى اعماقى تروى عطش السنين التى أمضيتها فى الحر والغبار بأعماق الغربة المريرة .

كان الخبز الذى نأكله فى ديروط مراً ، لأنه كان بعرق الفلاح معجونا ، ويفوح برائحته المرة .

وعندئذ بدأ يشرح لى الأمور قائلاً : «إنك مخطى ، تلك رائحة بذور الحلبة التى يضعونها فى كل شئ . أنهم يخلطونها بالدقيق يطعمون بها مواشيهم وطيورهم . إنهم يضعونها فى ماء مغلى ويشربونها لذلك فأنتجد هذه الرائحة فى اللبن . فى الماء ، بل وفى الهواء أيضاً . حتى عرقك أنت ، سرعان ما يفوح مثل الفلاحين برائحة الحلبة .

أما الغبار فكان محرقاً عنيداً يملأ الفم ويسد الانفاس يخدش الجفون ، ويجعل ضوء السماء غير محتمل . وفى الناحية الأخرى نجد المسك كمميز طبقى رائحته غليظة . يتعطر به كبار الأعيان والتجار والعمدة واتباعه الجشعون وبعض الرهبان التابعين للدير

القبطى على حدود الصحراء الليبية الذين كانوا يأتون إلى المدينة لشراء الاقطان .

ولكن فى الليالى يضحى الجو رطباً ، وتفوح ديروط برائحة الماء والشجر الذى يغمر جدائله فى القنوات حاملاً زهور البنفسج وكان الماء يفوح برائحة البرسيم اما وقت الفيضان فكانت تفوح رائحة الطمى . وكان ثمة شلال يملأ الكون صوت مياهه المتساقطة على المياه المنسابة تحته . كما كانت تسمع صليل السلاسل الرافعة لالواح الصلب و كانت تغطى الكبارى غمامات من رذاذ ماء خفيف . . وعلى شاطئ الترعة الكبيرة يخيم ضباب يلف اضواء المحطة والمقاهى فتبدو المصابيح على الكوبرى فى خضمه كأنها بالونات تسافر فى السماء . وكنت تشم رائحة السمك ولم تكن هذه الرائحة مثل تلك التى تفد من البحر ممزوجة بالملح ، بل كانت شيئاً آخر شيئاً حلواً وحريفاً فى الوقت ذاته ، شيئاً متحللاً وخاطئاً . ثم تأتيك من بعيد ، من داخل الارض الداكنة رائحة الخضرة ، ودخان نار مشعلة . وفجأة تفد اليك رائحة كريهة فقد كانت الترعة تحمل تارة جيفة حمار وتارة جيفة خروف تطرق بوابات القناطر الصلبة كى تستكمل رحلتها إلى البحر وهى رحلة ما كانت تكملها قط .

كانت ديروط مركزاً من مراكز الرى الهامة مفتاحاً يوزع الماء من قناة الإبراهيمية الكبرى إلى قنوات أصغر لرى المنطقة التى

كان بها ثمانى قناطر . اذكر عند الفيضان كانت البوابات تفتح شيئاً فشيئاً فيرتفع منسوب القنوات ، ويظهر الصيادون حينذاك على الكبارى هواة كانوا أو محترفين يمارسون الصيد . كان كل من لم يوفق فى الحصول على قوت يومه فى هذه الارض الغنية يجئ ليصطاد لقمة عيشه كى يتمكن من المضى على قيد الحياة ويكمل سيرته . كان الصيادون يمسكون اعواد بوصٍ يربطون بأعلاها خيطاً عند نهايته ثقل وسنانير بغير طعم كانوا ينحنون على البوابات ويدلون بالسنانير فى الماء الهائج فكانت تعلق بها اسماك من شتى الانواع والاشكال . وعندما يهبط الليل بسواده الحالك ويقوم الخفراء بالصيد أيضاً . وكان يصطادون السمك الكبير كما كانوا يأخذونه من الآخرين بالقوة . ثم يبيعونه لنا بعد ذلك . وكان طعم هذه الاسماك ممتزجاً بطعم الطين .

الفصل الثانى

عندما رآنى بوليفيو اخذنى بين ذراعيه وراح يمطرنى بقبلاته . وسرى فى اذنى صرير طقم اسنانه . كان قد أعده له صانع اسنان فى الصعيد لا يجيد صنعته ولم يكن الطقم ينطبق على أكمل وجه . وكلما ضغط فكيه صدر عن الطقم ذلك الصوت القمئ وعندما كان يفتح فمه ليضحك بدا بين اللثه وخامة الاسنان الصناعية فراغ أسود يبدد حلاوة ضحكته . وقال لى : « – صح النوم ، منذ خمسة عشر يوماً ، يضج الريف هنا بالسلاح ، وأنت مشغول عن ذلك» كانت املاك الشركة تقع على مبعدة ، فاستقل بوليفيو عربة صغيرة وأخذنى إلى هناك وبعد مسافة قليلة وقف بنا عند شجرة ضخمة وقال لى وهو يضع كفه على اذنه اليمنى :

– « هل تسمعها ؟ »

ومن بعيد وفد صوتها مثل انفاس من الصلب حافلة بالتنهدات . صوت ماكينة تعمل بالديزل قلت :

– « انها خاريكليا ! »

– « إنها تغرد تماماً كما فى أول يوم بدأتُ فى تشغيلها منذ خمسين عاماً مضت . فليحمها الله من كل حسد » .

وتلفت باحثاً عن قطعة خشب يلمسها درءاً للحسد .

وكان «خاريكليا» اسم أمه التى افترق عنها منذ أن كان فى

سن العاشرة تركها فى كاستيلوريزو باليونان ومنذ ذلك الحين لم يرها . وفى مصر حيث «يغترف الناس الجنيهات من الشوارع» للمه مهندس ميكانيكى جمع بين الجنسيتين السويسرية والالمانية أصول الصنعة . كان الصبى بوليفيو يناوله المزيتة والمفاتيح اثناء عمله . ويصب له الماء اذا ما فرغ منه كى يغسل يديه . وكى يستطيع هيجلار المضى فى العمل كان يجب أن يكون إلى جواره زجاجة الويسكى . وكان يسكر ويبدأ فى السباب صائحاً . «ايتها الحيوانات ! ايتها البلد القذرة ! » لكنه كان يربح الكثير . جاء إلى الصعيد فى بداية القرن ينصب ماكينات الديزل للرى والمطاحن فى المزارع الكبيرة . وفى ديروط طلب رب العمل الذى كنا نعمل عنده روزاكيس ماكينة ، وطلب هيجلار مالاً كثيراً لقاء تزويده بماكينة عملاقة قوتها ٢٥٠ حصان . تظاهر روزاكيس بأنه لايفهم ، فقد كانت لديه خططه . وبعد خمس سنوات هدم المطحن وشيد محلجاً للاقطان ، وكان الأول من نوعه فى المنطقة ، وربح من ذلك ثروة كبيرة .

وعندما وصلت الماكينة إلى مزرعة روزاكيس فى ديروط وفتحت الصناديق تحت شجرة التوت الضخمة جن جنون بوليفيو وهام حباً بالماكينة التى لم ير لها مثيلاً من قبل . والتصقت روحه بها .

- وجاء اليوم الذى أصبحت الماكينة مهيأة للعمل فذهب بوليفيو إلى روزاكيس وقال له :

«خذني معها . أريد أن أعمل هنا ، مع هذه الماكينة ، ولا يهمني الأجر» .

قال هذا الكلام بالعربية للالماني السوسري هيجلار والدموع تطفر من عينيه . فغضب وفتح زجاجة خمر جديدة وقال :

«في صحتكم . أنتم لن تفلحوا ابداً . أنتم عاطفيون أكثر من اللازم» .

روزاكيس لم يفتح فمه بكلمة . وكانت هذه فرصة ذهبيه اتيحت له . وقد كان هكذا على الدوام محفوظاً فقال له هيجلار لروزاكيس ممسكاً ببوليفيو من ياقته :

- «اسمع ، اني أعطيك عبداً وليس ميكانيكيا . كان الاجدر أن يكون هو صاحب الماكينة . سوف أتي مرة في السنة لكي أرى الماكينة ، وحذاري أن تستغل هذا الرجل الآن ، ثم تفرّق بينه وبين الماكينه فيما بعد . سوف يكون حسابك عندئذ معي عسير ! انك تاجر ، وتبيع حتى روحك . أينما ذهبت هذه الماكينة يذهب بوليفيو معها» وهذا حدث فعلاً . بعد أربعين سنة عندما أخذ ورثة روزاكيس يبيعون تركته برخص التراب فإن الشركة التي اشترت خاريكليا أخذت بوليفيو معها . كان عمر الماكينة انذاك أربعين عاماً ولكنها بدت على الدوام جديدة . كما لو كانت قد أخرجت تواً من صندوقها .

قال لي بوليفيو : «دعك من هذا . وماذا يعني لو أني كنت

عبداً لها أو هى عبداً لى . هنا اراؤك فى الاقتصاد السياسى تتروى فى الخطأ . انها علاقة روحية تلك التى تربطنى بها . اسميتها أمى ، وكانت لى أماً بحق . جعلت منى انسانا ، مهندساً ميكانيكيا على حد قول الآخرين . بفضلها تزوجت ، وزوجت اولادى ، وهى لاتزال تمنحنى لقمه العيش حتى الآن ، وقد تقدمت بى السنين ولا أعرف ما الذى كان سيصير اليه حالى بغيرها ؟ »

هممت أن أقول له «ومع ذلك لم يكن بمقدورك أن تحصل على طقم اسنان جديد» . لكننى زممت شفتى وسكت . ثم سألته :

– «هـل صحيح أن ورثـة روزاكيس دفعـوا اليك مستحقاتك المتأخـرة والتعويض ؟ »

وقال :

– «أوف ! وهل بقى لهم شئ يدفعون منه هذه المستحقات ؟ تبدد كل الميراث كالدخان . أخترت موقفاً أكرم من موقفهم . انها لعنة نور الدين بومبه» . .

– «نور الدين من ؟ اللص ؟ . . . »

نظر إلى نظرة اختلط فيها الاستياء والاشفاق . وقال : – «اللص . . ! نور الدين لم يكن لصاً بل كان ريِّسا أى ربان مركب .

الفصل الثالث

وشرع بوليفيو يحكى قصته . فقال :

- «عندما عرفت نور الدين نمنم اول الامر كان رجلاً مرحاً وسيماً ، وبه ميل قليل نحو الشجار . كان يرتدى سروالاً أسود فضفاضاً مما يرتديه المراكبيه ، وحزاماً أحمر ، وصدرية بيضاء مطرزة لا يرتدى من تحتها شيئاً ، وطربوشاً أزرق قصير بزر منفوش ، وخفاً أبيض نظيفاً . كان يبلغ عام ١٩٠٦ من العمر خمسا وعشرين سنة ، وكانوا ينادونه فى ديروط «بومبه» لأنه كان شديد القوة . وعندما أحضر روزاكيس الصندوق المعروف - وكان يزن ما يقرب من النصف طن - نقله نور وحده . وضع لفافة حول جبهته ، ووضع الصندوق على رأسه فنفرت عروق رقبته كالحجر ووطأت قدمه لوحاً ضيقاً من الخشب سار عليه . ثم تنى ركبته وانزل الصندوق الثقيل إلى الأرض بسهولة ، كما لو كان صنية فضية . وكان أخرون ينادونه «أبو شنب» بسبب شاربه الأسود اللامع الذى كان على الدوام يسويه براحه يده ، بادئاً بطرفه الأيمن ، ثم متنقلاً إلى طرفه الأيسر .

كان فى ذلك الحين يملك مركباً واحداً ذات شراع ، يسيرها بنفسه ، ويرسوبها فى «النوبارية» الترعة الصغيرة ، التى كانت تجرى من ديروط حتى النيل ، ونقل الرواب ومحاصيل البصل

والقطن حسب المواسم . ومن هناك كانت هذه الترعة تنقل إلى المدينة لوازمها وبضاعتها .

وفى تلك السنين كانت الحكومة تطارد المراكبية وتقول عنهم أنهم يعملون فى تهريب الحشيش . وكان ذلك ادعاء كاذباً كما سوف ترى فيما بعد . وكانت تضيق عليهم الخناق حتى يضطرون إلى التخلى عن عملهم بما تفرضه عليهم من ضرائب وما تطالبهم به من مستحقات ورسوم مقابل التراخيص وما تقتضيه من غرامات وما تحصله منهم لقاء المرور من الكبارى فضلا عما يحتجزه لانفسم رجال السلطة من أنصبة . هذا بالأضافة إلى الأيام الضائعة ، ومنها يوم فى اسيوط للكشف على المركب فضلاً عن تعنُّت القائمون بالكشف والمعاينة فهذا لايرضينهم وهذا ليس سليماً ، والقلفطة ليست على ما يرام ، والدهانات يجب أن تعاد . ولماذا هذا الترقيع بالشراع ؟ ! وهكذا ، وأنت تفهم ما الذى يحدث عندما تتعامل مـع الإنجليز ولكن نور صمد لكل ذلك ونجح . النوبارية طولها خمسة أميال . ووجد تجار ديروط أن من مصلحتهم أرسال بضائعهم مع نور حتى مجرى النيل . ومن هناك بعد ذلك تنقلها مراكب كبيرة إلى المنيا أو القاهرة أو إلى أبعد من ذلك . والا كان من اللازم ان تنقل البضائع على مراكب كبيرة تسير ضد التيار بطول ترعة الإبراهيمية للوصول إلى اسيوط . وهذا الطريق طوله ستون كيلو متراً ثم تأتى المعاناة ازاء وجود

الخزان هناك فيضطر أصحاب البضائع إلى نقلها على عربات نقل تخترق العاصمة كلها حتى تجد عن الناحية الأخرى مراكب فى النيل يحملونها البضاعة كى تمضى بها إلى مقصدها من جديد . ولم تكن المصاريف هى وحدها العقبة بل أيضاً كان ضياع الوقت فقد كان أصحاب البضائع بواسطة نور يوفرون اسبوع كاملاً ، كما كانت مصاريفهم تنخفض بواقع النصف فيما اذا استأجروا قوافل جمال حتى اللنيل . اما السكة الحديد فكانت تكلفتها أغلى من ذلك أيضاً . ولم يكن نور يعرف فى العمل هزلاً ، ولا يعرض المتعاملين معه لأى سرقات أو تأخير . . . وعندما كانت الريح تهمد والهواء يسكن كان نور يضع الحبل حول وسطه ، ويقفز إلى الشط . ويمضى يجر المركب غير عابئ بثقل حملها ، ولا بالبرودة التى تسرى إلى قدميه وليالى الشتاء ، ولا بحرارة الشمس فى أيام الصيف التى تمزقه بلهيبها تمزيقاً . كما كان يغنى أيضاً وهو يمضى فى زحفه قدماً . وأصبحت القرى الصغيرة على ضفاف النيل تألف صوته ، وهو يغنى لنفسه . وقد اسمى مركبه «خير» . وقد جلبت له «خير» مركباً آخر بشراعين وقد سماها «أسيوط» وأصبح بعد أن ازدهرت الأعمال يختار لمراكبه اسماء جادة وقد عهد «بأسيوط» إلى أخيه واحد ابناء عمومته . أما هو فقد تولى ترتيب خطوط السير والمواعيد والأجور وكل شئ واحتفظ لنفسه بمركبه «خير» التى كانت اسهل حركة إسلس قياداً

من المراكب الأخرى . وقبل انزال «أسيوط» إلى الماء حضر إلى نور ودعانى لشرب الشربات احتفالا لهذه المناسبة وربما كان ذلك عام ١٩١٠ أو ربما قبل ذلك لا أذكر على وجه التحديد . كانت عيناه ضاحكتين عينان سوادا وان ، اهدابهما طويلة مثل اهداب النساء . وقد اكد لى روزاكيس ان نوراً تجرى فى عروقه دماء بدوية ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى فلاح من قرية تقع شرقى النيل جارت عليها غوائل الطبيعة فمحتها من الوجود .

وقــد أخذنى معه ذات مرة إلى هناك فى سنوات تعارفنا الأولى . كان الفصل شتاء ، عبرنا النهر بقارب ، وكانت المياه ذات رونق ، حلوة المذاق ، مما يجعلك وأنت ترشفها وكأنك أصبحت رجلاً آخر . كانت السماء زرقاء تتناثر على اويمها نتف وردية من السحب الصغيرة . وكانت الأرض التى خلفناها وراءنا خضراء تغطيها زراعات القمح والذرة .

وكان سقف النخيل متحانقاً مثل تيجان ، وتبزغ أشجار التوت فوق هامات القرى الصغيرة الطينية ممتلئة متربة . ومن الحقول التى تدفئها الشمس تفد رائحة ثقيلة . ووصلنا إلى «الكوم» . فوجدناها جبلٌ وحجراً وتراباً أبيض رقيقاً مثل البدار . لاشجر هناك ولاسقف تحتمى تحته الاولاد . ولم ار فى المكان سوى زرع أصفر حافل بالاشواك . كان المكان جحيماً ملتهباً حقاً . ولهذا كان الاهالى هناك يتمتعون باهداب طويلة مثل اهداب البدو

. كان المكان ينضح برائحة الاطلال وفضلات الكلاب رغم أننى لم أر منها واحداً . ولم يكن أهل الكوم يشعلون بالليل ضوءاً . ورأيت بعض الماعز تمضغ اوراقاً وبقايا من اعواد الذرة وكلها عجفاوات تبرز عظامها من تحت الجلد وبالمثل كان الاهالى أيضاً يرقدون فى الشمس . منازلهم مبنية من حجر يأتون به من الجبل وليس من طين مثل منازل الفلاحين كيف كان أهل الكوم يعيشون ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ ما العمل الذى يعملونه ؟ قبل قدوم الإنجليز كانوا يعملون على المراكب . ولكن بعد النظام الجديد ، الذى وضعه الانجليز ، بحث كل مراكبى عن عمل له ولاقاربه . وما كان باستطاعتهم العمل بالفلاحة ، فلم يكن لأيٍ منهم أدنى قطعة أرض كى يزرعها . وقد حولهم الجوع إلى قراصنةٍ . وكان بالامكان أن يتحول نور بدوره إلى ذلك ، ولكن هذا ما كنت لا أعتقده فقد كان يكره السرقة بطبعه ، وكان يصف أهل قريته بأنهم لصوص ، ويستنكر منهم ما انحدروا اليه . وقد كانت كل المنطقة تخاف «الكوم» . وويل للمركب التى تمر ليلاً بمضيق جهنم . عند منتصف المسافة كان ينتظرها الخطافون . وكانوا يظهرون من داخل الماء ويغرقون المركب . وكان التيار يقوم ببقية العمل .

كان يسحب البضائع إلى الشط حيث كانت نساء واطفال «الكوم» فى انتظارها . ولذلك فقد كانت المراكب تمر من هناك صباحاً ، أو تتجمع عند منفلوط . وتمر جماعات . ولكن ذات مرة

كان أحد اصدقائنا من فولوس ينقل خموراً ويمر مع مراكب أخرى من هناك ووقع فى الفخ وكاد أن يهلك . وقد اعقبت هذه الواقعة أيام كثيرة مضت تتعالى من ناحية «الكوم» صيحات السكارى وضحكاتهم .

تسألنى وأين الحكومة ؟ لماذا لم تفعل شيئاً لوقف هذا ؟ واجيبك بأن وجود قريسة القراصنة كان فيه مصلحة للانجليز الذين كانوا يحاربون المراكب والمراكبية . وهناك شئ آخر أضيفه وهو أن أى تاجر كان يفلس فى البورصة ، ويريد أن يعوض خسارته كان يتفق مع أحد المراكبية ويحمِّل المركب قطناً فاسداً يؤمن عليه بضعف قيمته الحقيقية . وتغرق المركب من الفاعل ؟ «كوم جهنم» ويقبض التاجر ، يقبض المؤمنون وتقبض البنوك . ماذا تفعل الحكومة والإنجليز هل يغضبون الناس ؟

كان هناك خطر واحد . ان تكبر القرية وتوسع نشاطها ولكن كل شئ محسوب وكان هناك حل . رجال القرية يتعاطون الحشيش وكان لقزم ذى لحية كبيرة غرزة فى الناحية الأخرى من القرية . حيث لم يكن باستطاعة المراكب أن ترى نور ناره . مرة كل شهر أو شهرين كان القزم يأتى إلى المدينة ويتقابل مع قهوجى يونانى يدفع الاموال ويأخذ الحشيش ومع الدفع يعطى تقريراً بما يحدث فى «كوم جهنم» . ثم كان القهوجى يذهب إلى العمدة «كمانى الكبير» عميل الإنجليز وهو الذى كان يحمى المرسال الذى

ينقل البضاعة من القاهرة وهو الذى يحمى القهوجى . كل شئ بثمن طبعاً . «كمان ، كمان» أى أكثر وأكثر . ولا يشبع ابداً . لذلك سموه «كمانى» . هذا بالنسبة لقرية نور . ولكن هو أيضاً لم يكن يفهم أول الأمر الأمور كلها . وقد مرت سنوات وسنوات كى يتحقق له ذلك .

الفصل الرابع

بعد رحلتى إلى الكوم أصبحنا أصدقاء . كان يزورنى ونشرب القهوة معاً . وكان روزاكيس يتمتم قائلاً «لم تجد صديقاً آخر غير هذا الكلب» ذات مرة اطلعت نور كيف تعمل خاريكليا . مضى يتأملها كأنه يقوم بشرائها . دعوته للذهاب إلى الاسطبل ليرى جواداً عربياً أصيلاً ولكنه رفض ، وأخذ يسألنى عن الماكينة قلت له «انتظر عندما يأتى هيجلار سيجيب على أسئلتك الكثيرة . ومن الجائز أن يكلفك هذا رجاجة خمر» وأخبرته لماذا اطلقت على الماكينة اسم خاريكليا . سد أذنيه وقال لى «حرام هذا شئ ليس له روح»

قلت له : «اعطيتها روحى انا» فى تلك السنوات عندما كنت تقول شيئاً كان الأخرون يفكرون فيما قلته ، ويمضون يحللونه ويقلبونه فى عقولهم . فقد كان الوقت كله ملكهم . وبعد قليل قال لى – «كلامك صحيح . لو لم أعمل حساباً لكلام الناس لسميت مركبى الثالث «سعاد» . وكان هذا اسم زوجته . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أخبرنى أنه متزوج . وربما كان ذلك لأننى لم اسأله . ذات ليله بعد أن انتهيت من عملى خرجت لالتقط انفاسى ، ووجدته يجلس تحت شجرة التوت الكبيرة قال لى «انها فى كوم جهنم وأنى قلق عليها . اتوجس كثيراً . انك لاتعرف كم هى طيبة» . وهكذا

حكى لى قصتهم من البداية .

كان فى يوم على متن «خير» ذاهباً إلى ديروط لأن موسم القطن كان قد بدأ . لم تكن الشمس قد ظهرت من خلف الجبال بعد . تعكس مياه النوبارية ظلال الاشجار والسماء ويخيم السكون والظلام على الشاطئ بدأت هامات الشجر تلوح للناظرين . غسل نور وجهه وتناول افطاره ثم مدد جسده على المركب وأخذ يغنى فى سعادة كان يعرف الطريق جيداً . بعد قليل هناك فجوة يأتى اليها بنات القرية ويأخذن الماء فى بعض الاحيان كان يداعبهن فيضحكن ، ولكنهن لن يظهرن الآن على أى حالٍ فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . وفجأة لمح نور فتاة فى سروالها الاصفر وهى تنظف سيدة أخرى عارية تماماً . لم يلحظا وجود المركب . فكر نور أن يصيح فيهما منبهاً ، ولكنه فكـر أن هــذا لن يكون بذى حدوى ، فليس هناك مكان يستتران به على أن صوت شراع المركب المنساب فى السكون نبه المرأتين إلى وجود المركب . صرخا فيه قائلتين «انصرف من هنا ، يا قليل الأدب» ولكن كان من المتعزران ينصرف . وقف فحسب وظهره لهما كأنه يقول «ها أنا لا أرى» . نظر إلى الشط ، فرأى الفتاه . قد خلعت لباسها والبسته للمرأة العجوز لم يعجبه تصرف الفتاة . ولكنه فكر فى هذا بأناةٍ . فأعجبه احترامها لسن المرأة العجوز . وربما كانت امها . احاط فمه بكفيه وصاح «لا تنزعجى يافتاة عندماأعود للمرور من

هنا أريد أن أقول لك شيئاً» ترى ، هل سمعته الفتاة كانت «خير» تبتعد مسرعة .

فى اليوم التالى كانت الفتاة عند الشط ومعها قلة . اقترب نور من الشط ولكنه لم يوقف مركبه قال لها : «اقتربى من المركب من الممكن أن يرانا أحد» .

«أكانت والدتك السيدة العجوز ؟ »

قالت «كلا ، انها جدتى» .

-«ما اسمك»

-«سعاد» .

كان والدها جاد الرب مزارعاً صغيراً له اولا ذكور وبنت واحدة ، هى سعاد

-«هل تعرفين . اسمى ؟ »

- كيف لا أعرفه ! . أنت بومبه . رأيتك مرات عديدة . انك تغنى كثيراً »

حتى هذا كانت تعلمه اسعدت اجابتها نوراً .

-«لماذا فعلت ذلك ؟ » .

فهمت الفتاة مقصده . ونظرت إليه خلسة :

-«ما الذى فعلته ؟ »

-«خلعت سروالك لتسترى عرى جدتك» .

- «وماذا فى ذلك طلبت منى هذا . وأنت ماذا كنت ستفعل لو

كنت مكانى ؟ » اعجته هذه الإجابه أيضا مضت ليلتان وهو يفكر

– «سعاد اريدك زوجة لى ، فما رأيك ؟ »

ضحكت الفتاة ونظرت اليه ، وهو جالس داخل المركب .

– «والدى لايحب المراكبيه . لاتجدهم فى منازلهم ابداً » .

– «وهل توغلى فى الطين مثل الديدان أفضل ! »

حجبت سعاد وجهها ووقفت مولية اياه ظهرها ثم انصرفت مسرعةً كالغزال .

عند الغروب ، استعار نور حمار وذهب إلى منزل جاد الرب .

قال له الرجل «كلا . إنها ابنتى الوحيدة . اريدها إلى جانبى أنت مراكبى ، اليوم هنا وغدا لا أحد يعلم أين . منذا الذى يحمى شرفها عند غيابك . اخوتها ؟ كنت أود ألاّ امانـع . فأنت مجتهد وعندك مركب» . قاطعه نور مصححاً «بل مراكب . . »

– «مراكب حسناً ، ولكن عائلتك بل قريتك بأكملها لصوص» .

كانت هذه اهانه كبرى . جن جنون نور . لو امسكه بين يديه لمزقه ارباً ارباً ، ولكنه اخفض رأسه . ركب حماره وانصرف مقهوراً . فى صباح اليوم التالى كانت سعاد تنتظره عند الشط . وكانت جدتها معها وتخفى وجها . رست «خير» ودخل نور بسعاد . وفى المساء علم جاد الرب بما حدث فى المساء فقال :

«ما حدث ، حدث . فليأخذها بعيداً عن هنا لأن اخوتها سيقتلونهما ويكفينى ما حدث . وبعد ذلك خلع لبدته ، ونظر إلى

السماء وقال ثلاث مرات «اقسم بالله العظيم لا هى ، ولا زوجها ، ولا ذريتهم أو احفادهم سيطأون عتبة هذه الدار . ولو حدث وأخلفت هذا القسم فيا من سمعونى ارجمونى بالحجارة كما ترجمون كلباً مسعوراً»

وعندما انتهى نور من سرد حكايته قلت له :

«أيصح ، يا بومبه أن أنزل إلى قريتك ، ولا تعرفنى بزوجتك ؟ ألسنا أصدقاء ؟

قال لى : «كلا ، مافعلت كان سليماً . أنتم الخواجات فيما بينكم لكم سلوك آخر . يكاد التفكير فيه يورثنى الجنون احياناً . ناهيك عن كلام نساء القرية . أنت لاتعرفهن . بل ويخيل لى أن ما قلته الآن لكثير ولكن احسست أى نوع من الناس أنت عندما قصصت لى عن والدتك وأنا لى أيضاً والده هناك .

الفصل الخامس

وأكمل بوليفيو حديثة قائلاً :

- «الآن يجب أن أقول لك عن عائلة كماني . عندما اتيت إلى هنا في الثلاثينات كان «أبو رزق» كبير العائلة قد توفي وكان عمدة البلد عمر التعلب كما كنا نسميه ، وتعرفت الى عزيز الذى كان نائباً في البرلمان وسليم شيخ الخفر وشيخ البلد في آن واحد ، كما تعرفت إلى حسن وحسنين المحامين وبقية افراد العائلة وكانوا قطعيات من الثعالب . ماكان بالامكان أن تعجبكم فعالهم ، ولكن هل تعلم من اى أصل يتحدرون ؟

قلت «كان سليم رجلاً طيبياً»

- اعلم انك كنت ميالاً إلى سليم . كنت اراه في مكتبك كثيراً تشربان القهوة وتتحدثان . . . ولكن من الذى يستطيع أن يقول أنه كان إنساناً طيباًأو سيئاً . كان طيب القلب ، يعطف على الفلاحين ، ولكن كان هو من نفذ ابشع الجرائم .

كان يخاف اخوته لأنه كان من أم أخرى غير أمهم ، كانت خادمة عند أبو رزق . ولذلك لم ينل خطاً من التعليم ، وعينوه شيخاً للخفراء وبسبب درايته بالناس ، سرعان ما كان يعلم عن أى مكيدة تدبر . وفي الليلة ذاتها كان خفراؤه ينقضون على مدبريها ويجهزون عليهم وما كان بامكان لص أن يبقى في ديروط . تارة

ترى الدمــوع تنهمر من عينيه وتارة ينقلب وحشاً ضارياً لارحمة به . اخواته يأمرون وهو يطيع اشقاؤه المحاميان والصغير الآخر كانوا من زوجة أبو رزق الثالثة وكانوا يتظاهرون باحترامه امام الناس ذراً للرماد فى العيون ، ولكنهم عندما كانوا يجتمعون فى منزل العمدة ، كان سليم لايفتح فمه بكلمة وإنما كان يتلقى الاوامر فحسب ويجيب قائلاً «حاضر» «حالاً» . وقد مات بالربو . هل علمت بذلك ؟

قلت : – «كلا ! يا لخسارة هذا الرجل»

كنت أعنى ما أقول . وما كان يقوله بوليفيوس عنه كنت أعلمه أو توقعته ولكننى فى الحقيقة تعرفت على سليم آخر . ما هو مصير الإنسان . كيف تخطط له الحاجة ، وأين ترمى به المقادير .

كــان سليم ينقل بالجمال قطن روزاكيس وكان يأتى إلى فى المكتب للمحاسبة . كانت ذاكرته قوية ، وكلمته من ذهب . لم يكن يخطىء قط . كنا ننتهى من الحسابات ، وبعد ذلك نتحدث . كان متعطشاً للعلم كان يقول لى :

«دعـك مما يقوله الفقهاء ، خبرنى بما تقوله الكتب التى تقرأها . كيف يمكن أن تكون الأرض كروية ؟ من الذى خلقنا ؟ من الذى سيحاسبنا بعد الموت ؟ »

كان يحب الاهالى ويعشق قصص الجمالين ، وكان يختزنها فى ذاكرته . كان أمياً لم يتلق تعليماً بينما وصل اشقاؤه إلى

البرلمان يلقون خطباً ، ويقرأون الصحف . كل شئ ورق فى ورق .
كانت لسليم روح يقظة وسامية ذات مرة سألنى وهو يشير إلى زهرة الجنفليا الحمراء «ماذا تسمون هذه ؟ »

قلت له على اسمها

فقال لى «الشعب عندنا يطلق عليها دم الغزال أليس هذا الاسم أجمل ؟ »

فى عام ١٩٣٥ خفض المستبد صدقى باشا الضرائب على الأرض قليلاً فقلت لسليم «هذا حسن»فقال معلقاً فى سخرية «قالوا للكفيف الشموع رخصت»ذات يوم حكى لى القصة الآتية وعند الانتهاء منها نظر إلى لكى يرى مدى تأثرى بها «لكى يشغل البدويات اطفالهن الصغار يأخذن حبات الذرة ويخفينها فى الرمال فيلهو الصغار بالبحث عن الحبات واخراجها من الرمال ثم يأكلونها وعندما يفرغ الصغار مـن الحبات كلها ، فلا يعثرون بعد ذلك على شىء منها ، يعاودون البكاء» وانني اذ اتذكر هذه القصة الآن أجد أنها لاتعنى بالنسبة لى شيئاً . ولكنها آنذاك ، حينما كان يحكيها لى سليم كانت تعنى الكثير اذ كان بصرى يقع على خيام البدو فى الصحراء المترامية الأطراف من حولنا وكان ثمة طفل يلهو بالنبس فى الرمال ولعله قد أحس بمرارة ذراتها فى حلقة . كان السكون عميقاً . وقطع بوليفيوس ذكرياتى قائلاً :

«أبو رزق لم يكن من ديروط بل كان من المنيا . وكان من اتباع

محمد سلطان رئيس مجلس الشيوخ الذى خان الزعيم أحمد عرابى . وقد قال عرابى عن ذلك «لم نهزم من أسطول سيمور ولا من جيش اللورد أو لسلاى بل انهزمنا من فرسان سان جورج» وكان يعنى بذلك الجنيهات الذهبية التى قبضها سلطان ثمناً لخيانته أفقد كان مرسوماً عليها صورة سان جورج . وفى عام ١٨٨٣ كان الانجليز قد احكموا احتلالهم لمصر ووصلوا إلى حدود السودان . وقد سلُم الخائن لرجاله مقاليد الأمور حتى يتأكد من أحكام قبضدته . وهكذا ارسل أبو رزق إلى ديروط ، ولو لم يكن له فيها شبر من الأرض وكان كبير الأعيان هناك عثمان باشا . الذى لم ينحز لا لاحمد عرابى ، ولا للخديوى توفيق أى للانجليز . وقد كان الخدوى اسماعيل قد خصه بالأرض التى يمتلكها عام ١٨٦٥ ولذلك كانت سياسته مغايرة . كان إلى الاتراك وإلى الفرنسيين أميل وإن كنت لم اتبين موقفه قط والآن تخيل اننا واقفون على الكوبرى وظهرنا إلى الشمال . تحت اقدامنا تجرى ترعة الإبراهيمية الكبرى التى تأتى من أسيوط وتمر ذاهبةً إلى دير مواس وملوى والمنيا . . والقاهرة اموازياً لهذه الترعة وناحية الشرق منا سوف تجد السكة الحديدية وسوف ترى المحطة والمقاهى ، والبنك ، والأزقة ، والمحلات الصغيرة ، والمسجد أو مقر المأمور وبعد ذلك خمسة أميال من الأرض الزراعية حتى نصل إلى النيل . والأرض من هنا مقسمة إلى قطع صغيرة لزراع صغار

مثل جاد الرب . والحدود الجنوبية لديروط هى النوبارية ، قناة بومبة ، وتمضى الكبارى شرقاً . أما فى الغرب فستجد الطريق القادم من أسيوط موازياً للشط الأيمن للابراهيمية التى قبل أن تصل إلى المكان الذى نقف عليه هنا يشقها سد ويتفرع منه ترعة الدلجاوى ، الفرع الغربى للنوبارية وتصل مياهة إلى الدير ويلفظ انفاسه فى الصحراء الليبية . وقد كانت كل هذه الأرض فى يد الاعيان الذين كان كبيرهم عثمان باشا . وكانت أرضه تبدأ من الطريق الترابى وتصل إلى أرض الدير . حدودها الشمالية كانت تمتد إلى الديجاوى أما جنوباً فلا أذكر إلى أى مدى تمتد ، وان كانت توغل بعيداً أعلى أى حال . وكانت الأرض خصبة ، كثيرة الخيرات . ولم يكن تقل مساحة ما تملكه الأسرة عن ثلاثة آلاف فدان ، بما عليها من انفار وفلاحيين ، وما لا يقل عن عشرون قرى صغيرة .

وصل أبو رزق واختار قطعة أرضٍ فى جنوبى المدينة بعد النوبارية . وكانت هذه الارض تلاًّ تكون من تراكم الطين المستخرج من حفر القنوات وكانت تعتبر من املاك الرى .

وضـــع أبو رزق حراســاً فى كل مكان حتى على أرض الباشا . وجمع الانفار ، وتحت ضرب السياط والعنف سووا أرض التل ، ولما ذهب بعض هؤلاء الانفار إلى الباشا يشتكون له ، طردهم ، فلم يكن يعرف بعد من أين ستهب الرياح .

وبنى أبو رزق داراً للعمدية ، ومنزلين آخريين . وحوط المنطقة كلها بسور . لم يقل أحد شيئاً فقال لنفسه «عمل سهل هذا» .
وكان هناك تل آخر تكون من طين حفر القنوات أيضاً . ولكن فى الجهة الغربية على الشط الآخر . عند تلاقى الطريق الترابى بالدلجاوى أى أنه كان على حدود أرض الباشا . الذى كان طوال هذه الاعوام يحترم املاك الحكومة . وعندما أحس الباشا أن أبو رزق سيأخذها تحت سمعه وبصره جن جنونه . ذهب إلى المنيا يقابل محمد سلطان وقدم له فروض الطاعة دعى أبو رزق للحضور . فأمر رجاله أن يسارعوا بالانتهاء من عملهم ، وذهب إلى القاهرة وتحدث مع اللورد كرومر ثم عاد بعد ذلك إلى المنيا . حيث مكث ثلاثة أيام في مناقشات تلو مناقشات . وكان الباشا يعلم مبلغ قوته . فقد كان بامكانه أن يستنفر الفين من اتباعه ومائه بندقية مدفونة فى الأرض وثلاثين فارسا ، ناهيك عن علاقاته الطيبة مع بدو الصحراء الليبية . اما أبو رزق فكان لا يملك سوى خمسة عشر بندقية ، ومؤازرة الجيش الانجليزى الذى كان بعيداً جداً عن الموقع على أى حال . فاتفق الطرفان على أن تكون قطعة أرض النوبارية ملكاً لابى رزق ، وحلال عليه اما قطعة الديلجاوى فستظل تحت النزاع لمدة عشرين سنة وبعد ذلك سوف نرى . واقيمت الدعوى اللازمة حتى يضمنا الاتمتد يد أحد إليها وكان هذا الاتفاق يحل مشاكل أخرى ايضاً . لن يكون لاى رزق

علاقة بالزراعة فلا يؤجر أراضى للمزارعين وتظل الزراعة من اختصاص الباشا وحده . وارتاح لذلك لأنه كان يرى الخطر قادماً من هذا . سوف تكون المدينة من اختصاص أبى رزق التجارة ، النقل ، إيجار المنازل والاتاوات التى سيفرضها على أصحاب المحلات والحرف الصغيرة . وقد سعد أبو رزق بذلك . وتخيل أن نهر من الذهب سيجرى بين يديه . وعاد الباشا وأبورزق إلى ديروط . ولم يصبحا صديقين ، ولكن عندما كانا يتقابلان كانا يتبادلان التحية بحرارة واحتفظا بالاتفاق حتى بعد وفاة سلطان باشاً تجنباً لأى مشاكل . وعندما ظهر روزاكيس فى ديروط وطلب شراء قطعة أرض على الطريق أعطى القطعة التى تطل على الدلجاوى . هذا حدث عام ١٩٠٠ ومضت القضية تتأجل سنة بعد الأخرى . وكبر أولاد أبى رزق أو كمانى كما صاروا يسمونه نظراً لجشعة وتتطلبه المزيد والمزيد من المكاسب والاسلاب . وكذلك كبر اولاد الباشا ، وعلموا بحكاية التل ولم يقتنعوا . ولماذا يكون العمدة من أولاد كمانى ؟ ومن هو الاكثر غنى ، الباشا أم أبو رزق ؟ وكان الباشا يسكتهم قائلاً لهم «هذه مشيئة الانجليز»

«ولماذا لا يريدون أن يكون العمدة من بيتنا نحن ؟ » نحن العائلة العريقة ، عائلة أصحاب الجاة اليس بامكاننا أن نفعل ما يفعله افراد العائلة الأخرى» وهكذا بدء النزاع والخصام .

وذات ليلة أمــر ذين أكبر أولاد الباشا بقتل خفيراً على

الكوبرى . ولم يمر وقت طويل وقتل واحداً من عائلة الباشا . زين تحدى عمر أكبر أبناء الكمانى وتوعد بقتله . إجتمعت عائلة كمانى بدار العمدة صياح ، شتائم ، تهديدات ، ولكن لا أحد يريد أن يذهب ليواجه زين . نهض سليم وامسك ببندقية والده ومضى . مر من على الكوبرى بعض الخفراء أرادوا أن يذهبوا معه ولكن طردهم . عرج شمالاً إلى الطريق واتجه إلى منزل الباشا . وعند محلج روزاكيس ، وكان تحت التشيد أنذاك ، وبجوار الشط كانت تنمو شجرة لبخ كبيرة يقال أن عمرها يناهز مائة سنة وهناك كان يربص زين .

وعندما رأى شخص قادماً يمسك فى يده سلاحاً . اطلق من بندقيته نحوه فى الحال رصاصة ، لكنها لم تصب هدفها ولم يتوقف سليم ومضى يتقدم نحو زين . الذى حاول أن يعمر سلاحه مرة ثانية . ثم تملكه الخوف فحاول أن يهرب ، ولكن قدميه لم تساعده على ذلك وكان يرتجف .

وصل سليم اليه وامسك ببندقيته وهوى بها على وجه زين فهشم فكيه . وقال الخفراء الذين اقتفوا أثر سليم انهم سمعوا طلقتين ثم لاشئ . حسبوا أن سليماً قتل ، فاسرعوا إلى هناك وفجاة سمعوا عويل كلب يتألم . كان هذا صوت زين . لهذا صاروا يطلقون عليه «الكلب» . ولكن شهرته كانت مهشم الفكين ، أو «المجنون» واضحى ينتابه الجنون والهياج عندما يسمع اسم

«كمان» . ولكى يبعده الباشا عن الناس بنى له قصرا على مشارف الصحراء وزوجه بفتاة حسناء تركية الأصل وقال له» - من الآن ستلزم هذا المكان ولن تأتى إلى ديروط ابداً» .

وبعد موت الباشا خلفه ابنه الثانى كمال بك ، الذى تعرفت عليه ، وعندما مات أبو رزق تولى الامور من بعده عمر الثعلب .

الفصل السادس

في العام الأول ، انجبت سعاد طفلة ، وفى الثانية انجبت طفلة أخرى لكنها توفيت فور ولادتها كانت سعاد تلعن كوم جهنم وتقول : «أرض ملعونة لا طين بها لا ماء ، كيف تنبت إذن البذرة ؟

وكانت تتذكر قريتها بجوار النوبارية . الاشجار ، والبرسيم الذى كانت تطعم به بقرتهم . كانت سعاد تذبل كالوردة . وقليلا ما كان يذهب نور إلى القرية ليراها ، كان منشغلاً بأعماله ، وكانت تسأله أين ترقد وتنام . وكان يقول لها «داخل المركب» ولكن من الذى يرى ذلك . ثم ترفق بها الله ، فرزقها ابناً . وما إن وضعت طفلها حتى ارسلت فتى من القرية ذهب سابحا ليبلغ نور الذى جاء على عجل فى قارب صغير ذى مجدافين مشرق الوجه مثل الشمس ، مرتدياً أفضل ما عنده من ثياب وصاح باهل القرية «انهضوا ايها الكسالى ، وافرغوا ما بالقارب »

كان قد جلب معه خيرات من كل نوع ؛ ذبائح ، أرز ، سكر ، شربات . أكلت اهل القرية وحمدت له وكانت سعاد تحمل طفلها فخوراً به . وقد نسيت كل احزانها . وقال نور لأمه «ألم أقل لك أنها طيبة»

وأجابت أمه «وأنا قلت لك هذا . وهى تعتنى بى»

وكانت هناك جارة قالت لنور «ستعود إلى ديروط بقاربك

حالياً ، الا تأخذنى معك لدى نذر أريد أن أفى به هناك» وقال نور « ماذا ؟ تأتين معى ؟ وكيف ستعودين ؟ »

«لاتقلق . سأجد وسيلة لذلك» كانت سعاد قد أعطتها مالاً يكفى لتأجير مركب كبير . كانت ترسلها إلى والدها دون علم أحد . «ابلغى والدى تحياتى ، إن ابنته الوحيدة قد انجبته له حفيداً . وتريد أن تأتى بولدها ليباركه» .

مرت أربعة أيام والجارة لم تعد ، فانتاب سعاد القلق وأخيراً ظهرت . وما أن وطئت قدميها القرية حتى اطلقت العويل والصراخ . احتشدت حولها نساء القرية . وقالت شيئاً ، فشرعن يشدون شعرهن ، ويشرن باصابعهم ناحية النوربارية ، وينهلن بالسباب واللعنات و «رجل عجوز ، تقطع يدك يا جاد الرب يا قذر» «يا ايها العجوز ، القذر ، الملطخ بالاوحال ، يا جاد الرب ، يبست يداك !» انقضت عليهن سعاد لتمزقهن فقالت جارتها «انظرن اليها اسمعن عن اسرتها خيراً تفعل بهم ، فيوسعونك ضرباً . ولكنك سوف ترين . سوف يغسل اشقائى بالدم هذه الاهانة» غضبت سعاد وجن جنونها . كان شقيق نور موجوداً بالقرية ذهبت اليه وروت له ما حدث . «افعل شيئاً . ارسل إلى نور سيقتلون والدى» امسك شقيق نور بعصا ليضربها ولكنه تركها . خاف من نور . وقال لها :

«انت السبب . وكيف تفعلين هذا وبدون علم زوجك ؟

بعد ايام قليلة وصل نور . كانت تشوب وجهه الغيوم . اسرعت سعاد اليه لكى ترحب به .

رفع يده وانذلها على وجهها وركلها ركلة ارتمت بسببها على الأرض ، أمام نساء القرية . بكت وصرخت «نور ، قرة عيونى . أنت تفعل بسعاد هذا ؟ »

نبشت الأرض باظافرها المخضبة بالحناء ، باحثة عن طين تلطخ به وجهها وكأنها فى حزن كبير .

وصلت والدة نور ورتبت على ظهرها بشدة وكان نور ينظر اليها وقد استبدت به صورة الغضب قالت والدة نور «انهضى ، وقبلى يد سيدك»

امعـنت سعاد فى البكاء ، فقالت العجوز «ساقبل أنا يده» ولم ينبس نور بكلمة . رفعت زوجته رأسها وقد تلطخ وجهها بالتراب ، واختلت النظر اليه . ثم نهضت وامسكت يده اليمنى وقبلتها طلقت نسوة الكوم زغاريد الفرح . وقالت أحدهن متشفية :

«اضربها ثانياً لكى تتعلم»

تركهم نور وذهب إلى منزله . انقضى اليوم ، وأتى الظلام كانت ابنة نور نائمة وابنه الرضيع فى حجر والدته يبكى وهى تحاول أن تنيمه . أما نـور فظل ممدداً فى فراشه يفكر فى الظلام . ثم نام الرضيع .

قال نور

أما كان يكفينى مالدى من هموم حتى تضيفى اليها انت بدورك مشاكل جديدة . ماذا كنت تنتظرين من أبيك ؟

قالت سعاد :

«ليس بأمكانى أن أنسى أبى وهو يعود مبتسماً من الأرض وأنا ارحب فرحة به .

وماذا بامكانه أن يفعل ؟ حتى لو اراد فليس بأمكانه شئ لقد اطلق اليمين . وأنا نفسى لو كنت مكانه لفعلت مثله .

ولكن هل يرضى ربنا سبحانه وتعالى بهذا الوضع ؟ »

لم يجب نور . ثم اردف بعد قليل يقول :

«ربنا كبير . وهو يحاسب على كل شئ»

قالت سعاد :

– لماذا تقول ذلك ؟ فيما تفكر ؟

غضب نور ، وقال :

«كنت أقول هذا عن عائلة كمانى . لم يكن فى ذهنى والدك العجوز»

– تفكر فى نفسك وفى مراكبك . بدلاً من أن تفكر كيف نرحل من هنا . انهم يناصبوننى العداء . أقول لك . ازداد نور غضبا فنهض وخرج من المنزل فى جنح الظلام . من بعيد ترتعش المصابيح على كوبرى ديروط . مع من يتحدث اذن ، وإلى مشورة من يستمع ؟ سمع ضحكات تفد مما وراء القرية . صعد التل .

اطل منه فرأى مقهى القزم ، حيث جلست جماعة تدخن ، وتثرثر حول نارٍ موقدة حسدهم على خلو البال وعلى الألفة ، ولكنه قال لنفسه ، لو ذهبت إلى هناك لجلبت على نفسى المتاعب . ولن استطيع بعد ذلك أن افلت . عاد ادراجه إلى بيته . وفى الظلام جلس إلى جوار زوجته . وقال لها

– انى اصنع مركبا جديداً هذه الآونة . وذات يوم ذهبت إلى الورشة فرأيت سليماً هناك يأمر وينهى الصناع .

قلت له :

– ماذا تفعل هنا ؟ لا أريد احداً أن يعطى الأوامر لصناع مركبى .

قال لى

– أنت مخطئ . ليست هذه مركبك . أنها مركبنا

– ماذا تعنى ؟

– نصفها ملكى . وربعها ملك للعمدة ، والربع الآخر لك . ما قاله له سليم كان قد تقرر فى دار العمدة .

قالت له :

– لماذا هذا ؟ وهل تأخرت يوماً عن سداد الضريبة أو إلى شئ

– هذا لايكفى . مراكبك تضر باعمالى وبما انقله من بضائع بجمالى .

– ولماذا لاتنزلون بدوركم مراكب إلى الترع . وهل سامنعكم عن ذلك ؟

قال سليم بحزم :

– ما قلت لك هو ما سيتم . :

وقالت سعاد :

ياللضباع ، يمتصون دماء الناس .

– وهـــل بقى للناس دم ؟ قفص البلح الواحد يطرح فى السوق ، فيأخذون لانفسم منه النصف .

– وهل يرضى ربنا هذا ؟

– هذا ما كنت أقول . وعلى أى حال فربنا كبير . أخذت فى حضنها ، ووضعت رأسها على كتفه .

– وماذا ستفعل الآن ؟

– لا أعرف . سأذهب إلى الباشا

– اذهب . كان والدى يقول . . اذهب ، ولكن ابعد عن القتل .

الفصل السابع

كان روزاكيس يحتسى القهوة ، مرة فى الاسبوع مع الباشا فى منزله واعنى بالباشا كمال بك فإن الإنجليز لم يعطوه «الباشوية» وكان القصر يتعلل له بأنه لازال شاباً . ويبدو أنهم استمعوا إلى عائلة كمانى ، أو أنها وشت به . وكان الباشا وفدياً ، ولكنه لم يكن يعلن ذلك . أصبح روزاكيس شخصية مهمة . كانوا يعتبرونه «عـادلاً» و «ذكيا» قام بشراء «خريكليا» للطاحونة أول الأمر . ثم شيد المحلج قبل أى شخص آخر . وأصبح هجـلار الذى كـان ينعته روزاكيس بالحلوف ، يأتى اليه جالباً بعض الصفقات الصغيرة . وكان الباشا يرحب بروزاكيس حتى لا يصبح جاره هذا صديقاً لعائلة كمانى . وكان يلاطفه ويستشيره عن أحوال البورصة .

وكانا يتحدثان أيضاً فى أمور السياسة . الأعمال والتجارة وكان روزاكيس يتذكر ما فعل الإنجليز بوطنه كريت ، فيتحدث عنهم فعيط . كما كان الباشا يتحدث عن احتلالهم لمصر .

ثم بدأت حرب البلكان فلم ينبس الباشا بكلمة عن الاتراك وكذلك روزاكيس . وقبل ذلك كانوا متفقين على أن حركة التحديث التركية قد تثمر شيئاً جيداً . أما الآن فلم يكن لتركيا فى احاديثهما وجود . كان كل منهما حريصاً الا يجرح الآخر .

وكان روزاكيس بمنزل الباشا عندما جاء نور يشكو له عائلة كمان التى كانت تريد أن تسرق منه مركبه الجديد وقال روزاكيس بصوت عالٍ سمعه الموجودون كلهم :

– نور هذا رجل نشيط

– قد لمحه واقفاً مطأطن الرأس منذ فترة ، ينتظر بالخارج ينتظر الأذن له بالدخول . أبعد الباشا غليونه من شفتيه ، قال له :

– «أنت يا مراكبى ما الذى أتى بك هنا» .

مسح نور قدميه . وفى تواضع دخل المكتب

وعرض مشكلته . صاح فى وجهه الباشا بأعلى صوت لكى يستمع اليه كل شخص موجود عند الباب «أعتقد أنك مجنون . أم انك تريدان أن تغير أوضاع العالم . اتيت إلى هنا لتحكى عن المراكب اذهب إلى العمدة . هيا»

كانت هذه هى المقدمة . انتظر نور ولم ينصرف . وتدخل روزاكيس وقال :

– «مهما كان الأمر يا باشا ، فإن هناك عدلاً وبهذه الطريقة فإن حق الناس . . . »

قاطعه الباشا قائلاً : «الناس الناس . . وهل طلبوا منك أنت شيئاً ؟

– منى أنا ؟ هذا لم يحدث قط ، ولكن أنا شئ آخر ، وهذا موضوع آخر . كان يريد أن يقول أن القوانين تحمى امثاله

كان معفياً من الضرائب الحكومية . ولكن هذه أمور حساسة ليس هذا هو الوقت المناسب للخوض فيها . من ناحية سوف كان يخدش اعتبار الباشا ، ومن ناحية أخرى كان المراكبى يستمع . وهل من المصلحة أن نفتح عيونهم ؟

– أنت ترى . أننى لو استجبت لرغبة هذا الصعلوك سوف أمس النظام بالتغيير . سوف ترسل عائلة كمانى صرافاً من طرفها إلى محلجك وتحصل منك خراجاً عن كل بالة قطن تخرج من محلجك . وماذا بعد ؟ »

تمتم روزاكيس لنفسه قائلاً «يا سلام . اظهروا على حقيقتكم»

فعاد روزاكيس يلعب على وتر العدالة

– أهم شئ يا باشا انك لست ظالما . وأنى أوافقك على أنه يحب مراعاة النظام فى كان شئ . ولكن اليس لعائلة كمانى كبير يلزمهم باتباع الحدود . كان الباشا راضياً عن معاملات عائلة كمانى لأنها انما كانت تنتقض من سلطان المأمور الذى تعينه القاهرة . وسأل :

– مثل من ؟

قال روزاكيس موضحاً :

– الانجليز .

فهم الباشا ماذا يريد روزاكيس أن يقول ، وأجاب .

– «الإنجليزى ؟ انه هو الذى يرتب كل هذا . لماذا لا يشتون

الطرق ؟ لماذا يلغون تراخيص النقل بالمراكب ؟ ذلك كله كى تكسب السكك الحديدية . أو بعبارة أخرى ، الدولة وأين يذهب الايراد ؟ إلى جيوب أصحاب البنوك لسداد «الديون» والى بطون ذوى السراويل الحمر ، الذين ربضوا على اعناقنا . مفتش هنا ، ومفتش هناك ، فلا يستطيع أحد أن يلتقط انفاسه .

وكان نور يقف صامتا يسمع : وقال روزاكيس ممسكاً للعصا من الوسط

– ليست الأمور كلها على هذا النحو . عندما تنخفض أجور النقل تنخفض أسعار القطن ومنذا الذى يشتريه ؟ انجلترا . ولماذا يشترونه بسعر مرتفع ، أهم أغبياء ؟ ضحك ضحكة مفتعلة وقال :

– وهل سيهتم الباشا أو الانجليز بالملاليم ؟ كما أن أجر النقل يخصم من السعر . والاسعار تحدد فى ليفربول أى هم الذين يحددونها أيضاً .

– هذا أمر مؤكد ، ولكن البورصة . . دعنا من الحديث فى هذه الأمور هذه شئون اقتصادية عليا ، لن نحسمها اليوم . والآن ماذا سيتم مع الرجل ؟

– وهل أنا الذى سأقول له ماذا يفعل ؟ اذا كان رجلاً ، سيتصرف كما يتصرف الرجال .

فهم نـــور . «اقتل واحد أو أثنين من «آل كمانى» وأنا أرسلك

إلى الغربة مع زين» .

قال لنفسه «لن تنال ذلك منى» ولم يرفع رأسه وانتظر عله يسمع شيئاً آخر .

وقال الباشا :

ليذهب إلى الانجليزى . أنه صديق ، ولكن فليقل أنه قادم من طرفه هو . كى يعرفوا نذالة رجالهم .

فهم نور «أذهب أنت ، كـى أوقع أنا بك . هذا ما لن امكنك منه» .

انحنى ، وانصرف . وصل الخبر إلى ديروط امسك به اعوان العمدة . «ما الذى كنت تريد من الباشا ؟ » «هو الذى استدعانى يريدنى أن أنقل له محصول القطن» «أنت كذاب» ، يتولى البنك نقل القطن له» «قل ماذا كنت تريد منه» لزم نور الصمت «وماذا عن المركب» وقال نور «لاشئ» «تعنى هل ستنمد الشركة ؟ » هز نور رأسه وقال «كلا»

وعندما ذهب إلى أسيوط لاستخراج الرخصة . قالوا له سنفحص أيضاً المركبين الأخرين وحجزوهما عندهم وقالوا له «مستر كوكسن يريدك فى كلمتين»

كان كوكسن مفتش الرى الذى تتبعه كل الترع والقنوات صديقـاً للباشا . ما دام كان يعمل دائماً لتوفير الرى لأرض الباشا . أما عن الفلاح ، فإنه لـو رفع رأسـه كان يقطع الماء

عنه ، ويوقع به الخراب . كان كوكسن هذا طاغية وسكيراً . كان هيجلار سكيراً بدوره ولكنه كان ظريفاً . أما كوكسن فكان لو سكر يبيد القرى . كان يغرقها بالمياه ، أو يتركها عطشى زمناً طويلاً . لم يكن يعمل لأحدٍ حساباً . وكان قبيح الوجه ، ضخم الأنف ، وأسنانه تحر فيها السوس . وكان الفلاحون يطلقون عليه «أبو سنة» لأن أسنانه الامامية الثلاثة كانت مغطاة بطبقة من ذهب . وكانوا يخيفون به الأولاد الصغار . وكانت له عادة غريبة . كان يغير حذاءه أينما كان وحلا له ذلك . عادة انجليزية هذه . وكان يتبعه خادم يحمل لذلك حقيبة بها الاحذية . كان كوكسن يتخذ مكتباً له فى مسكنه الذى كان قصراً جميلاً على الضفة الأخرى من أسيوط على النيل .

المفتش يريده . دق قلبه بعنف .

عند دخوله المكتب ، وقف الانجليزى ، وأخذ يضرب نوراً . وضع يديه أمام وجهه ليحتمى من الضربات المنهالة عليه ، فامسك اثنان من الحراس السودانيين بيديه . وتناول كوكسن مقصاً من على مكتبه ، وقص به شارب نور ، ثم القى به على الأرض ، وداسه بقدميه . وبعد ذلك القوا به خارجا ، وهوى متدحرجاً على درجات السلم . وجرح وجهه وسالت دماؤه . ظل مكوماً فى مكانه ، وبعد قليل انتصب واقفاً على قدميه ، وذهب إلى النهر حيث اغتسل ، ووضع طيناً على موضع جراحة ، ثم لف وجهه بالكوفية ،

وما عاد يبين من وجهه سوى العينيين . كان ثمة ما يؤلمه ، ولكنها لم تكن جراحة ، بل مرارة الاهانة . جلس عند النهر الضفة الشرقية التى بدت معالمها واضحة كل الوضوح . كانت بلدته الكوم على بعد ٦٠ كم من تلك الضفة اسند رأسه إلى ركبتيه وانخرط فى البكاء .

الفصل الثامن

مر على تلك الأحداث شهر . فى سبتمبر يبدأ موسم حلج الاقطان . ولم يكن للاجازات فى هذا الشهر محل . وذات يوم قلت لنفسى «وما المانع ؟ سأذهب لأروح عن نفسى قليلاً» وذهبت إلى مقهى المحطة . وفى العودة فكرت «النوبارية علـى مبعدة خطوتين ، فلأذهب لأعرف سبب اختفاء نور» وعندما وصلت إلى هناك ، رأيت من ينقلون «خير ولما سألت أخا نور عما يحدث أجابنى بأنهم باعوا المركب . ولما سألت عن نور أجابنى قائلا :

– أنه يعمل بالتجارة

– نور يعمل فى التجارة ؟ وفيما يتاجر ؟

– سنرى

– وأنتم ؟

– سنرى

ودخلت مكتب روزاكيس ذات يوم ، فكان هيجلار يتحدث مع احـد التجار ، يلبس قفطاناً . وقد أولانى ظهره ، لكننى تعرفت عليه ، وهتفت :

– غير مفعول ! نور ؟

التفت إلى فى هدوء . هل أنا مخطئ ؟ كلا ، بل هو نور ، ولكنه حلق شاربه . رد التحية بلهجة جافة ، واكمل حديثه مع

الآخرين ضايقني هذا التجاهل منه . استأذنت وانسحبت منصرفاً .

بعد قليل ، جاءني هيجلار ، قائلاً :

– هل تعرف نور الدين هذا ؟ هل هو رجل أمين ؟

قلت له :

– ٢٤ قيراطاً . لماذا ؟

قال

– يريد أن يشارك سيدك ، وإن ازودهما بزيوت آلالات

قلت :

الذى اعرفه أنه رجل لاغبار عليه

خرج روزاكيس بصحبة نور من المكتب

قلت :

– سوف ترى ، سيأخذه ليريه «خاريكليا»

ولكنهما ذهبا إلى الاصطبل ، وأخرجا الحصان من الحظيرة وراحا يبديان اعجابهما به . والحق يقال ، أنه شبَّ عن الطوق وأصبح حيواناً شيقاً كانا يبحثان عن مكان مناسب لاستخدامه مخزناً وجهزا العقود ، وكتب السويسرى إلى الشركة ، وأنتظر رداً . جاء نور إلى المكان عدة مرات . واقتصر على مخاطبتى بسؤال جاف «كيف حالك يا أسطى ؟ » ثم ينصرف إلى الحديث بعد ذلك مع روزاكيس والتعامل معه . وكان يرى الحصان أكثر مما

كـان يرانى . وقد أضحيا صديقين . كان يأتيه بقطع السكر ويطعمه بها . وكنت اقول لنفسى «عالم غريب حقاً . أصبح نور تاجراً ، ولم تعد من مستواه ولكن ذات يوم افلتت منه كلمة اتضح لى منها كم كنت مخطئاً فيما اعتقدت . ذات مرة تقدم الوقت ونزل عليه الليل عندنا . ولم يكن بامكانه أن يجرى يجتاز الجسور كى يجد فى ديروط خاناً يقضيبه يقضى به الليل .

فاعد له روزاكيس فراشاً من زكائب الخيش فى الطاحونة القديمة . فـى حجـرة كناقد اعددناها هناك مخزنا لمخلفات الحديد .

قال له روزاكيس مداعباً ، وهو يهم باغلاق باب الغرفة عليه بالمفتاح :

– وإنك بذلك ستتولى حراسة هذه الأشياء . وقلت له وكأن شيئاً لم يحدث بيننا : – ستأكلك البراغيت . ضحك نور . ثم قال لى متنهداً :

– نفس أخرى تهتم بى اذن . انسيت يا أسطى بوليفيوس أين كنت أنام طوال السنين الماضية ؟ على ظهر «خير» . هناك تجد البراغيت حقاً .

وفات ليلة سهرنا لأن هيجلار كان سيأخذ قطار العاشرة إلى أسيوط . أحضر روزاكيس زجاجة خمر من دولابه ازاء شتائم السويسرى وسبابه له راح روزاكيس يلاطفه ويطيب خاطره ، ولكن

السويسرى تجاوز كل الحدود ونعت روزاكيس بالخنزير . وبعد قليل حضر نور مرتدياً أفضل ما عنده من ثياب . عمامة حريرية ، وقفطانا أسود ، وخفا أصفر . القى علينا التحية . ولم أغادر المجلس مادام هيجلار باقياً هناك . اخرج نور من صدره كيساً مليئاً بالجنيهات ، واعطاه لروزاكيس . الذى أخذ قطعة من الورق المقوى ، وكتب عليها اسم نور الدين بومبه ، وربطها على الكيس ، ووضعه فى الخزانة ، كان يفعل هذا مع الجميع . لم يكن يحصى النقود ولايعطى ايصالاً بها . وكان يحتفظ بها مهما طالت ولم يشك أحد من ضياع ما له قط . وقال لى روزاكيس ذات مرة «هل تفهم ؟ الملاليم التى آخذها منهم هم مدينون بها لى . وعندما يموت أحدهم اسلم الامانة إلى أصحابها» ولم يقل نور من أين أتى بالمال . ولكنه كان واضحاً لنا أن ما بالكيس من نقود يكفى لشراء ثلاث مراكب . وطلبنا له قهوة . وسأله روزاكيس «هل ستبيت هنا الليلة ؟ » اجابه نور قائلاً : «لو أمكن ذلك أكون شاكراً . أريد اللحاق بقطار الثامنة الذاهب إلى المنيا»

«حسنا ، سنتناول الافطار معاً فى السادسة . هل يناسبك ذلك ؟ »

وضع نور يده على رأسه علامة للرضا والموافقة . وأعطاه روزاكيس مفتاح المخزن . وقد صار يعطيه المفتاح بدلاً من أن يغلق عليه باب المخزن ، لأنهما سيصبحان شريكين . وفى التاسعة

ذهبت واوقفت «خاريكليا» عن العمل . وأطلقت الصفارة معلناً انتهاء العمل . وفى التاسعة والنصف نهض روزاكيس ، وأستاذن فى الذهاب إلى بيته . كان قد بنى منزلاً بجوار أرض الدلجاوى . وأحضر بنتيه من عند الراهبات واشترى لهما «بيانو» كانتا تعزفان عليه طوال اليوم . أما أولاده الصبيان فكانوا يدرسون بالاسكندرية .

وينهض هيجلار بدوره وقالى هيا بنا . كنت ارافقة إلى المحطة عادة كلما سافر ، وكنت فى كل مرة اتعلم منه اشياءً عن الماكينة ، فضلاً عن أن السير إلى المحطة كان بالنسبة لى نوعاً من النزهة . وقلت لنور «لا تنم ، فلن أتأخر ، وأريد أن اجلس معك» مر وقت طويل دون أن نتحارث . ولكن عندما عدت كان أغلق المخزن من الداخل . وعندما تصنت على الباب وجدته يغط فى النوم . فذهبت بدورى لانام .

وفى حوالى الرابعة صباحاً ولم يكن الفجر قد لاح بعد الحت على الحاجة إلى التبرز . لم يكن روزاكيس قد بنى لنا دورة مياه ، فكنا نقضى حاجاتنا فى الخلاء . وذهبت إلى شجرة لبخ ، هى التى كان قد أصيب عندها زين . كان الظلام حالكاً . ونقيق الضفادع يتوافد من الحقول فضلاً عن صوت خفير عند الكبارى يتعالى ، فيرد عليه خفير آخر من عند المحطة . بعد قليل سوف يطلق مساعدى الصفارة موقظاً أهل المنطقة المحيطة ، معلناً بدء

يوم عمل جديد ، فى المحلج داعيا العمال إلى عدم التخلف عن الحضور ، وسمعت فجاءة اصوات وكأنها اصوات نسوة يغسلن الملابس على الشاطئ اصخت السمع ولكن دوى الصفارة مالبث ان غطى على كل شئ ، منطلقاً فوق الماء ، والحقول والقرى ، واصلاً إلى الصحراء حيث يتبدد ويضيع . كما مضى الصفير شرقاً ماراً على المدنية والنهر وعند تلال كوم جهنم تعثر واندثر ساد الهدوء وتصنت لا سمع وقلت لنفسى لعلها تهيوآت ، ولكن كلاء فقد كان هناك من يعدو على ظهر جواد وأحل الحقول والمزارع . وأثرت الاختباء لا خوفا من أحد بل خجلاً من نفس فلم أكن قد وجدت الوقت بعد كى ارتدى كل ملابس بعد قضاء حاجتى ، فاصتميت بظلام الليل . على أن الشروق بدأ يبسط ضياءه ويبدد ظلمة الليل . وظهر الفارس أمام الطاحونة . وكان الجواد من تحته يلهث بشدة ، وكأن صدره على وشك الانفجار ، وكذلك الرجل الذى يمتطيه . وحدقت فى الفارس والحصان . ورأيت جواد روزاكيس الاسود يمتطيه نور دون سرج ودون لجام ، عارياً كما ولدته أمه . وهتفت بداخلى قائلاً «يا له من مجنون . سيقضى بتهوره هذا على الحصـــان» . وشرعت ارتدى ملابسى على عمل . وسمع نور حركتى ، فأدار رأسه نحو الشجرة . ولمحت السكين بين اسنانه اختبأت . نزل من على الجواد ، وادخله الى الاسطبل . لزمت الصمت . ولما خرج من الحظيرة مر بجانبى ، ثم نزل إلى الماء

وغسل سكينه . ثم غطس فى الترعة ، وراح يدعك جسده بحجر خفاف . ولما خرج وقع بصره على ، فنهضت واقفا ارتجف . وكان الصباح قد اشرق وغمر المكان بضيائه . نفض المياه من على جسده . حاول أن يغطى عنى عورته ، ومضى صاعداً . وقال لى «صباح الخير يا اسطى . كم هو منعش هذا الماء» ودلف إلى المخزن . دوت صفارة المحلج من جديد ، فاجفلت . ومضيت إلى الاسطبل لاطمئن على الحصان . تناولت فرشاة وقطعة اسفنج ورحت ادعك جسده . كان سينفق هذا الحيوان المسكين لو لم أصلح من حاله .

الفصل التاسع

فى تمام السادسة ارسل روزاكيس وجبة الافطار ، فطيراً ، ولبناً وجبناً وزبداً . ثم جاء هو الآخر ، ولكنه لم يشاركنا هذا الافطار ، اذ الف أن يقضى الصباح بقدح من القهوة فحسب . وجلس نور لتناول الافطار . وقال لى روزاكيس «اجلس ، لتشاركه الافطار . فتحت النافذة المطلة على الفناء حتى تكون على اتصالٍ «بخاريكليا»

وبعد الافطار جاء خادم يخبرنا أن سليماً بالانتظار فى الخارج . وأنه يريد نور الدين بومبه فى أمرٍ ما . وقال روزاكيس للخادم «فليتفضلْ»

جاء سليم ونظر الينا ملقياً علينا السلام وعلى شفتيه ابتسامته الهادئة ، وأخذ نور إلى ركنٍ ، وراحا يتحدثان بصوت خفيض . ظل نور هناك ، وجاء سليم وجلس مع روزاكيس ليشرب القهوة . وقال :

– إذن ، فقد نام نور أمس بالمخزن . اليس كذلك ؟

وقال روزاكيس :

– نعم ، ولكن لماذا ؟

– هل أنت متأكد أنه لم يذهب إلى أسيوط مع المهندس السويسرى ؟

انتفضت قائلا :

– رافقت أنا وحدى السيد هيجلار إلى القطار . وبقى نور هنا . وعندما عدت كان يغط فى النوم .

– وكم كانت الساعة آنذاك ؟

– ربما كانت الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف لا أستطيع أن أحدد بالضبط ، لأننى سرحت قليلاً فى العودة .

نظر إلى روزاكيس متعجباً . أعرف . كنت أضيف نصف ساعة أو ساعة إلى الزمن الصحيح .

– ومتى كانت الساعة عندما فتحت بابه فى الصباح ؟

خشيت أن يقـول روزاكيس شيئاً عند المفتاح . فبادرت مجيباً :

– فى الرابعة والنصف ، عند الصفارة الثانية

– وهل كان بالداخل ؟

– بالطبع كـــان بالداخل . وأين كان يمكن أن يكون سوى هناك؟

وسأل روزاكيس :

– ولكن ما الخطب ؟

اجابه سليم قائلاً :

– انتظر قليلاً .

– عاد إلى نور وسأله :

– إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

– سآخذ قطار الثامنة إلى المنيا .

– حسنا . انصرف .

– لازال الوقت مبكراً .

– اقول لك أنصرف . وكن مديناً للخواجه روزاكيس ، الرجل الحكيم . انقذتك شهادته .

رفع نور كتفيه ، مبدياً عدم العلم بشئ حيانا ، وانصرف .

وقال سليم :

– وعند الحاجة ، سيستشهد بالسويسرى . مادام انه لم يكن معه فـى القطار ، كيف يمكن أن يتواجد فى منتصف الليل باسيوط .

وسأل روزاكيس :

– ولكن ما الذى يحدث فى النهاية ؟

– شئ خطير حدث فى أسيوط . فى الخامسة صباحاً اخطرنا بأن نجمع كل الفلاحين الذين كانت لهم مشاكل مع أبو سنة .

– هل اصاب كوكسن مكروه ؟

– ليس هو الذى أصابه المكروه ، بل شخص آخر ، لا يذكرون اسمه . بل أن كوكسن نفسه سافر بترخيص إلى انجلترا . هيا .

علىّ أن أنصرف . منذ الفجر وأنا أجرى الاعتقالات سوف يصب علينا الباشا أيضاً غضبه . بعض من اتباعه هو ذاته اجرينا القبض عليهم بدورهم .

وقال روزاكيس :

– ولكن نور تركته يذهب .

– وشهادتك ؟ لو قبضت عليه لكان ذلك أهانةً بالغة لك وفضلاً عن ذلك فقد أوصونى بأن أقبض على فلاحين ، وهو ليس فلاحاً ، وهو فى ديروط يعتبرونه من رجالنا . ولسوف كان التعرض له يسبب فى حقنا سوء فهم على أنه لو كان أبو سنة قد أصابة مكروة لما كنت قد تركته .

نهض سليم لينصرف . سأل .

– وماذا عن الحصان ؟

أجاب روزاكيس :

– أنه بخير ، تعال لتقول له صباح الخير .

ذهبنا نحن الثلاثة رتب سليم على جسم الحصان ولاطفه . تحسس موضع السرج . ثم ادار رأسه ناحية الضوء تفحص موضع اللجام . وقال :

– يبدو عليه الاجهاد .

وأجاب روزاكيس :

– كلا ، أنت مخطى فى ذلك . أنه فى نضارة ورد الصباح .

ولم يكن يكذب فيما قال .

ومضى اليوم . وكان يبدو على روزاكيس أنه يريد أن يقول لى شيئاً لكن التردد كان يغلبه . ولم أكن أوليه أكتراثاً .

وفى الليلة الثالثة ، انصرف الكتبة وكنا نستعد لاغلاق المكتب ظهر نور ، وقال لروزاكيس :

–الامانة

فتح روزاكيس الخزانة واخرج الكيس ووضعه على المكتب ، فأمسك به نور .

قال له روزاكيس :

– لحظة .

وأخذ الكيس من يده . مزق الورقة التى كانت مثبتة عليه . ثم أودع الكيس فى الخزانة من جديد وأغلقها . ظل نور ينظر اليه منتظراً ماذا سيقول .

قال روزاكيس :

– اهلكت الجواد . ومثل هذا الجواد يساوى مراكب كثيرة !

نظر نور الىَّ . ونظرت اليه محملقاً . أخفض اهدابه الطويلة وكأنه يقول لى «ابق بعيداً عن كل هذا» والتفت إلى روزاكيس قائلاً «ايها اللص ! » واختفى .

اما ما حدث بعد ذلك ، فقد حدث بسرعة وعلى نحو غير متوقع . بادئ ذى بدء الصحيفة اليومية . وكان يتلقاها من القاهرة

بالبريد صاحب المقهى الذى كان يجلب الحشيش كتبت بالبنط العريض الجثة مقطوعة الرأس لم يتعرف على صاحبها ثم مضى الخبر يقول «السيدة كوكسن . . تصور كان لهذا الكلب أم . لم تنشر الصحف العربية شيئاً عن هذا الحادث . وقررنا نحن «اللاجانب» أن نبقيه سراً بيننا حتى لا ينتقل إلى «أهل البلد المصريين» ولكن ذاعت اشاعة مؤداها أن بومبه ربى شاربه من جديد . منذا الذى رآه ؟ وأين ؟ لم تشر الاشاعة إلى ذلك من قريب أو من بعيد . وذات ليلة ، علقت بشباك أحد الصيادين عند الكبارى الرأس الذى انتشله من ترعة الابراهيمية . كانت منتفخة كالبطيخ . وقد التهمت الاسماك العينين والأذنين والشفتين والانف . ولكن كانت فى فمه ثلاث اسنان ذهبية . الاسنان الامامية التى كانت تومض وتلمع . «هذا أبوسنة» أخذها أحد الخضراء ودسها فى جوال ، وجرى بها إلى دار العمدة . وتناقل الناس الخبر «بومبه قتل أبوسنة . انتقم لنفسه» وانطلق اعوان العمدة مثل قطيع من الذئاب المسعورة . للامساك بنور والفتك به . ولكـن نور اختفـى كما لـو كانت الأرض انشقت وابتلعته . .

وجاءت قوات من شرطة اسيوط وانطلقت البرقيات ، وانقلب البلدرأساً على عقب . وقد استدعيت أنا وروزاكيس للتحقيق أكثر من مرة .

وأخذنا إلــى قريته ، ولكن لم يكن ثمة أثر لبومبة ، ولا لأخيه .

ولا لابناء عمومته . بل انهم ذهبوا حتى إلى حميه . ولكن بلا جدوى وقيل «لابد انهم مع المطاريد فى الجبل» وحن جنون سليم «افلت من بين يدى ! » أخذ حصان روزاكيس وكأبرع فارس ذهب إلى أسيوط وعاد فى خمس ساعات أو خمس ساعات ونصف كالطائر يفتح جناحيه ويطوى المسافات . هذا مستحيل ! »

وفى القرى ، راح الفلاحون يدعون لنور ، ويقولون «سلمت يداك يا بومبه . خلصتنا من شيطان» وأضحى اسطورة . فى اليوم ذاته كانوا يرونه فى الكوم ، فى أسيوط ، وفى المنيا ، وعلى ظهر مركب فى منفلوط . وسرت أشاعة بأنهم يختبئون عند زين . تحرك الباشا على ظهر جواده وذهب (لأول مرة على مدى سنين طويلة) إلى دار العمدة . ولم يمكث هناك . وقال للموجودين «اسمعوا . لو كان قد قتل واحداً منكم اخفيته عندى . ولكن أن يقتل اجنياً ، ابداً» وركب جواده وانصرف ولم يتوقف ليسمع اليهم . كان يعرف ما سوف يقولون .

وذات ليلة اشتعلت النار فى اقطان البنك . فقال الفلاحون «هذا فعل بومبه» وصدم القطار عجلاً عند اجتيازه خطوط السكة الحديد ، فقال المراكبية «هذا من تدبير بومبة» وامتنع أصحاب المحال الصغيرة عن دفع الاتاوات ، فقال اعوان العمدة «لبومبة أصبع فى هذا» واحد كان يسرق ماءً نسى الخزان مفتوحاً فغرقت بعض من اطيان الباشا قال الجميع «من تدبير

بومبه هذا » .

بعض العمــال والفلاحــون تركوا البلد واختفوا ليلاً . عمال المحلج يتسكعون فــى الساعات الأخـيرة ليوم العمـل الطويل وكـادت «خاديكليا» أن تتلف .

وأتى الشتاء ، شتاء ناعم دافى مثل القطيفة . وكانت فى أعماق الليل تسمع أصوات تقول «نور الدين بومبه جاى ! » وهو ما كان يعنى أنه قادم كى يهلك الطغاة . وقد جن جنون العمدة واعوانه . وخرجوا يتربصـون للناس وعندما جاء القزم ليعقد صفقته المريبة مع القهوجى . وفدت النداءات من الجانب الآخر ، وقد اطلقت من خلال الاقماع المكبرة للصوت .

كانت هذه معالم التغيير الطارئة على الأوضاع التى توجس منها الباشا . وقد جاءت مندفعة مباغتة .

الفصل العاشر

سطعت شمس الشتاء دافئة ذهبية اللون . باهرة لانظار أهل الكوم الذين تجمعوا على التل يشاهدون باخرة نيلية من بواخر كوك التى تطوف بالسياح بالمعالم الاثرية فـى الأقصر . كانت بيضاء اللون ، ناصعة البياض ، بمدخنة كبيرة . كانت قادمة من الجنوب ، وراحت تقترب من القرية إلى أن أرست عند الشاطئ . وكانت تبدو خالية الأمن بعض الخدم السودانيين بجلابيبهم الناصعة البياض والأحزمة الحمراء ، راحوا يتسكعون على ظهر الباخرة . ويطلون إلى الماء والشاطئ . وساد الهدوء . وكانت ملابس أهل الكوم المهلهلة ترفرف فى الهواء على التل .

وقال واحد منهم لآخر بجوارة :

– هذا رزق أتى الينا . يبدو أن بها عطل . ما رأيك لو اجهزنا عليها الليلة ؟

واجابه الآخر :

– كلا . انها باخرة كبيرة .

وقال ثالث :

– انظروا ، ترافقها قوارب .

كان التيار يدفع بقاربين كبيرين ملحقين بالباخرة ، التى كانت تخفيهما عن الانظار .

قال آخر ، فى قلق :

– متى أتت هذه الباخرة ؟ لماذا لم نسمعها وهى قادمة ؟ وكيف لم نر اضواءها طوال الليل ؟

وهمَّ القزم ذو الوجه البليد أن ينـصرف ، ولكنه تسمر فى مكانه ، يحك جلده مثل قردٍ . وفجاءة ، ظهرت من وراء التلال المحيطة بالقرية قوات من الجيش .

– انظر بعضهم هنا ، وبعضهم هناك ، انتشروا فى كل مكان . عجباً لماذا يحاصروننا ؟

جرى القزم إلى «غرزته» . وانطلقت طلقة بندقية من الباخرة . وضع الجنود السناكى على البنادق ، وبدأوا يهبطون التل صائحين مثل الشياطين . كانوا اناساً متوحشين يضعون على هاماتهم عمائم سوداء غريبة ، ويلفون مثل النساء شعرهم الأسود الطويل . كانوا كتيبة من السيخ الهنود ، جلبها الانجليز من السودان إلى كـوم جهنم . تسلل الخوف إلى قلوب أهل القرية . ودب بينهم الهرج ، قفز اثنان أو ثلاثة منهم إلى النهر للنجاة بأنفسهم ولكن آخرين تمالكوا اعصابهم ، ونادوهم أن يرجعوا . وقال :

– كلا ليس هكذا . يجب أن نبقى جمعياً معاً ، ونرى ماذا يريدون منا . راجعين إلى قريتنا .

وتجمعوا فى وسط القرية . وجعل صياح جنود السيخ أهل القرية جميعاً يتركون ديارهم ، ويخرجون ليروا ما الحدث .

وأطلق الجنود بعض الاعيرة النارية فى الهواء . صرخت النساء ، وبكت الاطفال . وهتف واحد من الشيوخ يقول :

– لا تخافوا . إجلسوا على الأرض . يبدو أنهم يبحثون عن نور . لن يجدوه ، وسينصرفون من حيث أتوا .

جلس الجميع على الأرض . عقدوا ايديهم حول ركابهم مثلما يفعل المساجين وقت الراحة من الاشغال الشاقة ونهضت والدة نور ، وقالت للجمع :

– يا أهل البلد ، أوصيكم خيراً بسعاد لم يعد الأمر هزلاً .

ونهضت امرأة أخرى تقول :

– انهم لم يحضروا بحثاً عن بومبه . انهم جاءوا من أجل المراكب . سوف ترون .

انخرطت النساء والأطفال فى البكاء والنواح .

– اهدأن . لاتفعلن هذا !

حاصرهم الجنود من كل جانب . ندت عن الجميع غمغمة . ثم خيم عليهم الصمت والترقب . وأحضر اخرون ، اولئك الذين لاذوا بالديار يختبئون . كما أحضر القزم أيضاً ضمن من أحضر .

نهض شيخ القرية ، وبدأ يسأل . لم يجب الجنود عليه بشئ . امسك به أحدهم من يده ، وانتحى به جانباً . كما اقتادوا آخرين إلى هناك . عزلوا الرجال والشبان اجفلت النساء قائلات «سيأخذوهن !» سحب الهنود من احزمتهم سياطاً ذات عقد

بنفسجية ، وطرقعوها فى الهواء . خيم صمت مثل صمت القبور .

ذهبوا بهم إلى خارج القرية . حوطهم عشرة جنود وضيقوا عليهم الخناق فى دائرة صغيرة . وصوبوا بنادقهم اليهم . ورجع بقية الجنود إلى القرية . امسكوا بالنساء واغتصبوهن . قطعوا ملابسهن بالمدى واغتصبوهن . بكت الاطفال ، ولطمت البنات وتعالت الصرخات والتوسلات ، وما من مجيب لرجاء أو استعطاف . لمحت والدة نور أحد الجنود الشرسين يقترب من سعاد هجمت عليه ، وخشمت وجهه باظافرها ، فدفعهما دفعة قوية القت بها ارضاً ، حيث استقرت ميتة . جرت أحدى النسوة مضرجة فى دمائها هاربة إلى النهر والقت بنفسها فى مياهه حيث جرفها التيار ، وراح الجندى الذى كان يلاحقها يتابعها فى دهشة .

كان رجال القرية يسمعون ، ويفهمون ما يجرى . لم يحتمل أحدهم ذلك ، هب واقفاً ، فاطلقوا عليه النار ، واردوه على التو قتيلاً . عند الظهيرة ، جاء عشرة جنود ، حلوا محل اولئك الذين كانوا يحرسون الرجال . كانت ملابسهم متربة ووجوههم ملائة بالخدوش ، وانصرفوا مشرعين السلاح ، مهرولين .

وفى الثانية بعد الظهر ، شرع يخلون المنازل من العجائز والاطفال الذين اختبؤا فيها . لمن النساء ووضعهن جميعا عند الشط . صاحت النساء والأطفال «اهم سيغرقوننا الآن ! » لم يبق فى القرية سوى جثمان والدة نور هناك فى القرية الخالية .

وبدأوا ينسفون القرية فى الثالثة . ولم يلبث أن استحالت منازلها التى لم تكن تزيد على خمسين منزلاً حجارة وتراباً واغصاناً يابسة محترقة . وتصاعدت سحب الاتربة والدخان وغطت الكوم .

سمعت بالكارثة قرى النوبارية على الشط المقابل . ورأوا الدخان المتصاعد من الكوم ، فهرع فلاحوها يبحثون عن قوارب تقلهم إلى هناك ليتبينوا حقيقة ما حدث . أهى الحرب اطلقتها باخرة كوك ، أم أنه احتفال يقام للخديوى عباس ؟

قبل غروب الشمس ، كانت الأوامر كلها قد نفذت . النساء على الشاطئ تصرخ وترتعد من شدة البرد . ابقوا الرجال على رابية قريبة من عن الباخرة ورست القوارب على الشاطئ ، وأخذت تنقل الجنود على دفعات إلى الباخرة . كانت المدخنة تضخ دخانا أسود . وعلا صفير الباخرة . وبدأت العجلات تدور وتضرب الماء واقلعت مضيئة انوارها كلها . بقى الرجال عالياً والنساء على جنب عند اقدام كوم جهنم التى ما عادلها وجود .

مر يوم ، مر يومان . خرج الباشا على صهوة جواده ، وطاف بكل القرى التابعة له . وقال «هل علمتم بما حدث ؟ سيحدث لكم ما هو أفدح من ذلك ، مثل كلب مسعور عليكم أن تنكلوا بنور ! »
اجتاز الحقول ، وذهب إلى سراى أخيه زين على مشارف الصحراء .

قال له زين ذو الفكين الملتويين «ماذا تقول للناس هل سنتحد الآن مع العمدة واعوانه ؟ »

واجابه اخوه قائلاً :

«يا لك مـن غبى انك لا تعى من أمرك شيئاً ، اعمتك متع النساء ، اخرج قليلاً من مجالس الحريم لترى ماذا يجرى من حولك . كان فى ضيافتك ، يأكل من أكلك اسبوعاً بأكمله ، ورجال من اتباعك مرروه إلى البدو فى الواحات .

وقد كان ذلك حقيقة ، فقد مر نور ورفيقاه من هناك للاتصال بالبدو على مشارف عزبة زين .

جمع زين رجاله ، واشبعهم ضرباً .

-هذا لتتعلموا الاتنفردوا باتخاذ تصرفاتكم .

ثم سأل الباشا .

– والآن ، افتح عينيك جيداً . بعد هذا الذى فعلوه به الانجليز سوف يريد الانتقام . وعندئذ ، من هنا سيمر .

انكمشـــت القرى ، وانطوى الفلاحون وأصحاب المحال الصغيرة على أنفسهم . وعادت الامور إلى أوضاعها القديمة . فيما عدا العاملين بمحلج الاقطان كانوا لايكتمون بكاءهم . فقد سحقتهم الحسرة على ما حدث .

وذات ليلة ، طرق باب جاد الرب صبى وقال «على شاطئ النوبارية شحاذة تريد مقابلتك . ومعها طفلان ايضاً» رفع العجوز

قبضة يده وضغط بها على قلبه . «أجر يا ولدى ، قل لها ان تنتظرنى . قل لها اننى فى الطريق اليها ! »

كانت سعاداً . اخذها العجوز فى حضنه وانزلها معاً فى البكاء . امضيا الليلة هناك فى الزمهرير . وقد مضى الآن طوال الليل يفكر . وعندما لاحت تباشير الفجر نهض وحده . ذهب إلى أحد البنائين من أهل بلدته . واخذه إلى داره هدم الباب القديم وفتح باباً أخر ، وبنى لابنته حجرة جديدة . سحب العجوز سعاداً من يدها . كانت القرية قد تجمعت وراحت تتابع ما يجرى . «مرحباً بك فى بيتك ، يا ابنتى . بارك الله فى ذريتك»

وما ان سمعت سعاد هذا حتى سقطت ارضاً ، وانكبت على الخيب «اتباه ، يا أهـل بلدتى ، يا ايهـا الناس المؤمنة ، أفعلـوا شيئاً مـن أجلى . سيذبحنى نور ! » ومضت تضرب الارض براحتيها وكوعها «لقد حملت سفاحاً من الجنود الزبانية ! »

الفصل الحادى عشر

استنشق بوليفيوس النسمات الرطيبة بشدة وامتلأت رئتيه بالهواء .

– نحن على ما يرام هنا . جو جاف ، غذاء نقى ، ومرتب مجزٍ . ولكن ثمة ما ينهش جوانحى . وبالليالى ، ثمة سيخ يتقلب فى مهجتى ، وتنتابنى الرغبة فى البكاء . كانت تلك سنينٌ مختلفة . كانت الحياة تشبه حلبة نضــال . كنت أعبر الجسور فيلسعنى البرد ، وتزكم انفاسى رائحة المياه والتراب الندى . ولم أكن أعرف اذا كنت سأصل بيتى حياً أرزق . وهل ستكون نهايتى برصاصة ، أم بطفة سكين ، أم بضربة نبّوت . كنت على الدوام اتوقع أن يجهز أحد على حياتى بنحو أو بآخر . هل عرف نور أنه لم أكن أنا الذى أبلغت عنه ؟ وفقد صار أعوان العمدة يرتابون فى واضحى روزاكيس كتوماً شديد التحفظ . أما الباشا فكان يخاطبنى باستعلاء كما لو كان فى حديثه إلى يمتطى صهوة جواده .

ومع مرور الوقت ، عرف أنه لم يكن العمدة واعوانه من امروا بتخريب الكوم ، بل كان الباشا . زاد ذلك من انكماش الفلاحين وانطوائهم على انفسهم . والف أصحاب المحال الصغيرة الآن صوت الباشا . الذى لم يكن يسمعوه من قبلِ الالماما . اصبح

يخرج إلى المدينة ويشترى من المحال . وادرك الناس مغزى ذلك سريعاً ، ونشاء لو هل يعنى ذلك إلى تحسين العلاقات ؟

وجاءت الحرب الأوروبية ، فاسترد العمد واعوانه وضعهم السابق . أعلن الأنجليز عن حاجتهم إلى متطوعين للعمل فى معسكراتهم . جمع سليم أول الامر كافة المتعطلين فى الناحية وكان منهم نفر من لاجئى الكوم ، فهؤلاء لم يجدوا اشفاقاً من واحد ، واضحوا جرحاً تعانى منه قرى الابراهيمية ، وسخت بذلك الفرصة للتخلص منهم . ولم تر ترعة الابراهيمية من قبل قسط ذلك العدد من البواخر تمخر عبابها فى طلب المتطوعين كما كان العمدة يشحن من يسميهم «المتطوعين» فى عربات مقفلة ويبعث بهم بالقطار إلى القاهرة ثم استدار اعوان العمدة على القرى ، فكانوا يمسكون بمن لا يرضون عنه ، أو لايروق لهم ، أو لا يدفع لهم ويرسلونه ضمن افواج المتطوعين . وكان من ضمن من تطاولت اليهم يد العمدة أيضاً بعضاً من عمال الباشا وفلاحيه ، على أن الباشا كان له انصاره داخل الوزارة ، ولكنه عندما اشتكى اليهم نصحوه قائلين «الزم الهدوء ، الآن تطبق الاحكام العسكرية» وشحت الايدى العاملة فى محالج الاقطان . وقال المقاول «لايمكن أن تسير أمورنا على هذا الحال . يجب أن ندفع الآن مبلغاً مقدراً من المال عن كل رأسٍ لاعوان العمدة» وكان روزاكيس يدفع ولكنه يضييف ما يدفع على سعر الحلج . ولم يكن لذلك يكترث كانت اعماله تسير

على أحسن حال كما أنشأ ورشة ميكانيكية وضع آلاتها فى الاسطبل القديم : فرن موتور ومخرطة . وتول عمليات صغيرة مثل اصلاح الاكسات ، وعجلات العربات الكارو ، وآلات الرى والفؤوس والمناجل وغيرها . وجلب لهذه الورشة مديراً يونانياً لصاً . أما أنا فلم أرد أن اتخلى عن خاريكليا .

لم تكن علاقاته تشير على ما يرام مع المدير الذى عينه ، ولكن بالورشة كان يشتغل عامل اسمه عرفة ، وكان انسانا ممتازاً ، كنت استمتع بصحبته . وكان عرفه هذا رجلاً قبطياً من ديروط ، جاب بلاداً كثيرة . وكان به ميل إلى الرسم ، واشتغل روحاً من الوقت مع اسطى ايطالى فى ورشة ميكانيكية بالقاهرة حيث تعلم صناعة «القوالب» من الخشب تصب فيها خامة الحديد المنصهر . كل ما كان يعيبه فى عمله البطء الشديد فيه . ولكنه كان ذكياً ، كان يرى كل ماهو معوج ، ولايخفى عنه أى اعوجاج ، ولايتوانى عن الابانة عنه . كان يجمع شفتيه الغليظتين ناحية أحدى اذنية ، ويمصمص لعابه قائلاً «هذا حال الدنيا» ثم لا يلبث أن يردد قوله «كل شئ من عند الله» وكان يعنى بذلك أن الأمور كلها تجرى بأمر الله وحده . ولكن هل كان يؤمن بما يقول ؟ وكان فى أحاديثه يلقى التبعة عن بؤس الناس على الانجليز والباشا وعائلة كمان وكان يبقى روزاكيس فى نهاية القائمة . وكان ينظر إلى كى يرى على أى محمل سآخذ كلامه . وقد أخبر هيجلار الانجليز بأمر

الورشة ، فاستدعوا روزاكيس ، وطلبوا منه أن يصنع لهم بعض لوازم القنابل اليدوية والالغام . واعتبر روزاكيس ذلك خيراً هبط عليه من السماء ! ولكن الفلاحين كانوا ساخطين ، ويسخط معهم الباشا أيضاً كانت الاسعار فى ارتفاع كل يوم ، من لمبة الغاز إلى الدبابيس . ومن الناحية الأخرى ، فقد فرض الانجليز التسعيرة الجبرية ، ومضوا يجمعون المحاصيل بأرخص الاثمان . كانوا يعصرون الناس عصراً . ويمشطون الحقول وزراعات القطن ، ويبعثون محصلى الضرائب ويرفقتهم العساكر . وينهال السوط علـى ظهر الفلاح الممتنع . واصابت الدودة القطن فى العالم التالى ، والتهمت المحصول . ولم يكف كل ذلك بل فرضت ضريبة جديدة ولم يرق هذا للفلاحين اطلاقاً . «انكم تجمعون رجالنا ، فتخربون قرانا ، وتسرقون المحاصيل وتنهبونها ، أو تفرضون علينا الضرائب ومن أجل ماذا ، كل هذا ؟ من أجل أن تحاربوا الاتراك الامر الذى لانرضى عنه» هذا ما كان يردده رجال الباشا امـا اذا التقوا بروزاكيس فإنهم كانوا يبادلونه تحية الصباح بجفاء . وذهب الباشا إلى الضيعة عند أخية زين . وحس روزاكيس من علاقاته مع أولاد كمان ، وكان على الدوام يعطيهم الحق . وكانت لديه صورة للزعيم اليونانى فبنزيلوس ، عليها اهداء منه ، وكان يزهو بها . اما شكاوى الناس فما كان يهتم بها . وذات مرة قال لى عرفة :

– كان يجب أن يكون نور هنا قلت له :

– كيف تذكرته . فلينعم الله عليه بالخير اينما كان . من يدرى أين هو الآن .

ولم أكن قد رأيته بعد تلك الليلة . ما عادت سعاد على قيد الحياة . حاولت انزال الجنين الذى فى بطنها ، مستخدمة فى ذلك ملعقة ، فاصيبت بنزيف حادٍ أودى بحياتها ، وفاضت روحها بين يدى جاد الرب . وذهب شقيق نور وابن عمه إلى القاهرة ، سيراً على الاقدام ، وقد استبد بهما الارهاق والأرق ، ومثلا امام السلطان مثل شبحين . وقد حمل كل منهما كفنه تحت ابطه ، وطلبا من السلطات العدل والرحمة . قبضوا عليهما ووضعت الاصفار فى ايديهما . وبعث الانجليز فى البحث عن نور ، وقد علموا أنه يعمل على المراكب ، ويتنقل من مركب إلى آخر . ومن ناحية أخرى ، فقد نما إلى علم الرهبان أن ثمة شحاذا يجوب الاديرة الممتدة حتى البحر الأحمر شرقاً ، وربما كان هو نور ، بينما كان الباشا لازال ينتظره أن يظهر من طريق الواحات غرباً .

ومضت ثلاث سنوات قامت فى روسيا ثورة . وصاح الجميع «خيانة» وقد عرفت انهم كانوا ينهبون ويسرقون المزارع . ولكى أكون صريحاً فإن هذه الاحداث لم ترق لى . اما عرفة فكان له رأى آخر وقال «أن الشعب قد طفح كيله . هـذا ما كانوا يستحقونه الحكام هناك» قلت له «يقول المثل اخـرج انت لأجلس

أنا . وهذه عادتك أنت أيضاً» ولكننى ندمت فيما بعد لأننى تفوهت بهذه العبارات لعرفة . لم يغضب بل تعجب ، ونظر إلى قائلاً «إيه ، دنيا ! »

وقد عاد بضعة افراد ممن كانوا قد جندوهم للعمل فى الكتائب . عادوا خفية هاربين وحكوا عن الاهوال التى لاقوها . أشياء رهيبة حقاً يموتون كالذباب فى صحراء سيناء . وارسل بعض الانفار إلى فرنسا لحفر الخنادق والاستحكامات . حيث يموتون متسممين من الغازات ، ومنهم أيضاً من فقدوا الابصار . وسرى الحزن فى الكفور والنجوع وعلا النواح والنحيب . وقال لى عرفة «أرأيت ؟ كم هى ملحة الحاجة إلى وجود نور ؟ » كان يعرف اننى لازلت أحب نور ، ومضى قائلاً «هؤلاء فى روسيا رجال جسورون مثل نور» .

وفى تلك السنة أو قبلها بقليل ذاعت اقاويل بأن السنوسى وقبيلته فى ليبيا قاموا بانتفاضة ضد الانجليز ، ويمارسون ضدهم حرب العصابات ، وان الباشا يمدهم فى الخفاء بالزاد والاموال على ظهور الجمال من ضيعة أخيه زين . وقلت لعرفة «لو أن نور لازال على قيد الحياة ، فلابد أنه هناك» ونفى عرفة ذلك ، مؤكداً ذلك كما لو كان يخبئ نوراً فى جيبه . وقال «لو أنه فى ليبيا ، فمنذا الذى خطف ابنه الصغير تمنم من بين احضان جاد الرب ؟ »
وكان تمنم آنذاك صبياً فى السادسة من عمره . وكان جاد الرب

يقول حـزيناً لسليم عندما جـاء للتحقيق معـه «ضاع . وماعدنا نعـثر عليه . ماذا أقـول لك ؟ لـم يبق لنا سـوى الطفلة ابنتة ، عزاءً لنا . . »

وفى عام ١٩١٨ طلع علينا الرئيس ويلسن بنقاطه الاربعة عشر ، ووعد بالتزامها . وعرف حزب الباشا بتصريح ويلسن . ومضى رجاله يقولون : نحن بدورنا نريد استقلالنا نبيع اخطائنا كيفما شئنا . لا نريد على رؤوسنا مفتشين انجليز» وكان الفلاحون يتجاوبون مع ذلك ويقولون «ماعدنا نطيق هذه الحياة حتى الحثالات اكلناها . واضحى اولادنا يبيتون جياعاً . الموت اهون علينا من مثل هذا الهوان»

وفى اليوم التالى لاعلان الهدنة ، ذهب سعد زغلول باشا مع زملائه إلى مكتب المندوب السامى البريطانى ، وطالب بالاستقلال التام . وأجاب الانجليز قائلين «سوف نرى» وقامت المظاهرات فى القاهرة والاسكندرية . ومضى عرفه يردد لى قوله «لنور الدين بومبه أصبع فيما يحدث» حدثت اضرابات فى انحاء البلاد ، وتوقف الترام فى القاهرة . فيقول عرفة «لنور الدين بومبه أصبع فيما يحدث» . ثم قلت رؤيتى لعرفه فى تلك الآونة ، فقد راح هذا الرجل الذى يجب الدعه ، يدور مثل النحلة فى أزقة ديروط . أخذ الوطنيون يقطعون اسلاك التلغراف ، ويخرجون قطارات من على قضبانها . «لنور أصبع فيما يحدث» وترك الباشا سراى زين ،

وعاد يتبوأ عرشه ، وانغمس فى المشاورات مع جيرانه ، من كبار الملاك ، مسلمين كانوا أو اقباطاً . زاره أحد المحامين الكبار ، من الاقباط ، وكان خطيباً منوها ، وخطب فى الناس ذات يوم يقول «الدين لله ، والوطن للجميع» سمع اتباع العمدة ذلك ، وارادوا استغلال ذلك لاشاعة البلبلة ، وشحن الرأى العام ضد الحركة الوطنية . وقالوا للناس تفهمون معنى ما قيل ؟ انهم سيأتون إلى هنا بتجار يهود وسوف يعمل هؤلاء على افلاسكم ولكن هذه الفرية لم تنطل على الناس ، اذ كان يصعب تصديقها .

وعدل روزاكيس عن توقفه من تحاشى الباشا ، وذهب بعد هذه السنوات العديدة من الابتعاد إلى قصره ليشرب معه القهوة .

وقدموها له بسكر خفيف كما اعتاد أن يشربها . وقال الباشا «فى منطقتى كل شئ مضمون ومأمون . انك ترى ذلك بنفسك وما الذى يجعلك أنت تخاف ؟ مع اليونانيين أكلنا عيشاً وملحاً . اليس كذلك ؟ »

وفى اوائل مارس اعتقل الانجليز سعد زغلول وزملائه ، ونفوهم إلى مالطة . لم تكن الامطار قد نزلت فى ديروط منذ خمس سنوات . وذات مساء اظلمت الدنيا فجــأة . وانخفضت السماء ، سوداءً . وثقيلة مثل الرصاص . تصبب الناس عرقاً ، واختنقت انفاسهم ، استبد بهم الخوف . ثم انهمرت سيولاً من الامطار ، مصحوبة بالبراق والرعود ، وأغرقت كل شئ .

الفصل الثانى عشر

اشرقت الشمس جافة حارقة . وامتلأ الجو بالنجار المتصاعد من الأرض ، فبدت كما لو كانت تغطت بتماس رقيق من التل الازرق . ومضى الناس يقولون أن الصيف هذا العام سيجئ شديد الحرارة . وجفت الشوارع والازقة فى مدى يومين . وطلب الباشا من الفلاحين جميعاً أن ينزلوا إلى ديروط ، حيث سيقام اجتماع واصطحب المحامى القبطى ، وذهبا إلى منفلوط فى الليلة السابقة على الاجتماع كى يستنهضوا هم الناس هناك أيضاً للحضور . وعندما ذهبوا يستقلون القطـار للعودة ، قيل ان به عطلاً . وكان عليهما الانتظار وحتى العاشرة ، ليستقلا الاكسبريس النازل من الأقصر . تجمع الشعب فى المحطة لتحيتهما ، واستمرت افواجه فى المجئ . صعد المحامى على دكة صغيرة ، والقى خطبة . وراح الناس يهتفون بحياته ، وقد تصاعد الحماس حتى اندفعت الجماهير تحول دون ركوب الباشا للقطار الذى دخل المحطة ، وصاحوا بصوت واحد «كلنا نسافر معه» وهجموا على الابواب والنوافذ ، وامتلأت العربات بركاب لا يدفعون أجر سفرهم . وقد شق الباشا والمحامى طريقهما بعد لأى . ملوحاً بعصاه فوق الرؤوس ، حتى وصلا إلى عربة الطعام واحتميا بها ، مغلقين بابها عليهما . وجدا فى العربة ثمانية من الضباط وصف الضباط

الانجليز ، مضوا يرمقونهما ، شاحبى الوجوه ، وقد جزوا على نواجزهم وفى احزمتهم ثبتت المسدسات .

ووصـل القطار إلى ديروط . وهنا كانت جموع أخرى مثل النمل ، بالانتظار . وكانوا يحملون اعلاماً ولافتات ، ويهتفون بحياة الباشا ، وينادون بالاستقلال . وأطلق الحراس اعيرة نارية فى الهواء لينفض القوم من طريق القطار . ونزل أهل منفلوط واخذوا الحاضرين بالاحضان وانتابهم ما يشبه الهوس . صفر القطار ، فقالوا «كلا ، لن يسافر ! » تسلق المحامى من جديد سور المحطة ، ومن هناك ، أدلى بخطبة نارية ، فهتفوا له بجنون . انبرى الباشا بدوره لالقاء خطبة ، وقد سرت فى دمائه الغيرة والحماس . واذا به يقول «ايها الناس ، تنادون «الموت للانجليز» ولا تفعلون شيئاً . ها هم بداخل القطار ، فاقتلوهم ! » اسرع سليم يجرى إلى السائق وقال له «تحرك مزقهم فى طريقك سارع بالرحيل ! » دوت مراجل القطار ، ونفث دخاناً حارقاً . فاحترقت سيقان البعض وانطلق يتحرك . ولكن مالبثت الجموع أن لحقت بالقطار شهر الانجليز مسدساتهم . وقبل أن يصل القطار إلى دير مواس كانوا قد مزقوهم تمزيقاً ثم مضى القطار إلى محطة ملوى التالية ثم توقف تماماً عن المسير ، فقد كانت القضبان قد خلعت من موضعها .

وفى ديروط ، حطم المتجمهرون محولات السكة الحديد واشعلوا النار فى مكتب التلغراف . ثم توجهوا إلى قسم البوليس ودخل

الباشا وحده إلى غرفة مكتب المأمور ، وأغلق الباب عليها حيث اجتمعا على انفراد ، وتبادلا الحديث .

كان لدى المأمور عشرة جنود مسلحين بالبنادق ، وضعهم تحت تصرف الباشا الذى امتطى جواداً وانصرف بهم . ومن هناك عبر المتجمهرون كوبرى النوبارية الصغير ، وتوجهوا إلى دار العمدة . وعلى رأس السلم ، وقف سليم وقد شبك ذراعيه على صدره ، ومن ورائه الخفراء العشرون مدججين بالسلاح . صعد الباشا درجات السلم وبصحبته المحامى . وأُنْسِحَ لهما الطريق ومرا ، خمدت اصوات الجموع ، وضم الصمت .

وقال الباشا :

- حانت الساعة اخيراً . وسوف نضع الأمور فى نصابها الصحيح ، حتى نعيش جميعاً كأخوة . الوطن للجميع ، وما فات يجب أن يطويه النسيان .

وقال له عمر الثعلب :

- جئت فى الوقت المناسب . كنت أنوى الاستعالة ، بسبب مرضى .

وقال الباشا :

- حسنا ، سأتولى أنا مهام العمدية .

وقال سليم :

- وأنا بدورى ليس لدى مانع من أن أقدم استقالتى ، مادامت

سأظل احتفظ بالسلاح .

نظر إلى الباشا . لم يشر أحد إلى موضوع السلاح . وأوما المحامى إلى الباشا بهذه من كتفيه كى يوافق ، فليس ذلك بالأمر الجلل .

ووافق الباشا :

جمع سليم البنادق ، واغلق عليها المخزن . ثم خرج للناس ، وقال لهم انه قد تم تسريح الخفراء . وجن جنون الاهالى به من الصياح والصغير بالاستحسان . وانتحى سليم جانباً ، جلس هناك ، واخرج مسبحته من جيبه ، وراح يحرك صباتها باصابعه ، وقد امتقع وجهه .

وفى وقت مبكر من بعد الظهيرة ، وقفت أمام بيت روزاكيس العربة المقفلة التى يخصصها الباشا لحريمه .

ونزل هو نفسه من داخلها . وكانت هذه أول مرة تطأ قدمه بيت روزاكيس .

وقال له هذا الاخير :

– تبدو الاحوال مدلهمة ، اليس كذلك ؟

وأجاب الباشا قائلاً :

– ليس إلى هذا الحد ! ولكن الحرص على أى حال واجب . . ضع العائلة فى العربة . وخذوا معكم بعض الحاجيات . يجب أن تدركوا الدير قبل غروب الشمس ، حتى لاتجدون ابوابه موصدة .

وهناك سوف تكونون كما فى قلعة حصينة . وسأعطيكم اربعة من رجالى على صهوة جيادهم . ليصحبوكم إلى هناك .

– وماذا عن محلج القطن ؟ وكل العناء الذى بذلته من أجله . .

– ومنذا الذى سيمسه بسوء . أنه فى دائرة نفوذى . وأنى ابعث بكم إلى الدير حتى لاتصاب حريمك بالذعر . كما يمكن أن تشح المواد الغذائية لفترة من الوقت .

افرغ روزاكيس خزنته فى حقيبة . وأخذ معه الاوراق والنقود ، والامانات ، والمجوهرات . كما أخذ لوازمهم من الثياب ، وشحنها هو وبنتيه فى العربة . وعندما كان يهم بالرحيل ، ويركب بدوره العربة . قال لى :

– وأنت ، يا بوليفيو ، ماذا ستفعل

قلت :

– أنا لا أستطيع أن أرحل . لن اترك خاريكليا وحدها .

– كما تشاء . مادام الأمر كذلك . خذ البنادق وضعها فى دولابك .. خذ أيضاً الخراطيش . لاتعرف ماذا يمكن أن يحدث .

كان لدينا أربع بنادق ، نعطيها للحراس فى الغروب ، ونأخذها منهم فى الصباح ، وذلك لاستخدامها فى حراسة محلج الاقطان .

وفى اليوم التالى رحل مدير الورشة اليونانى إلى الدير على ظهر حمار . ومعه رحل سائر يونانى ديروط . ظللت وحيداً . جاء إلى عرفة يتصبب عرقاً وإن كان بادى السرور .

وقال لى :

– نحن انشأنا نقابة ، ياريس ، تعال انضم الينا فقد ننتخبك رئيساً !

– أى سخف هذا الذى تقول ؟ أى نقابة ؟ هذه ؟ ومن أنتم ؟

جلس عرفة على سريرى ، ووضع يديه على ركبتيه .

– شكلنا جماعة . سنكافح من أجل حقوق العامل . نحن جميعاً : الحدادون ، والنجارون ، والخياطون ، وصانعو الاحذية . . كل من يعمل ويعيش من أجره اليومى .

وسألته :

– وماذا عن عمال الماكينات .

اجاب قائلاً :

– كلا ، انهم فلاحون وليسوا عمالاً . وهؤلاء شئ آخر . ثم اين هم ؟ تبعثروا . يجرون وراء الباشا ويهتفون له .

وقلت له :

– دعنى لحالى . الا ترانى محموماً ، وحرارتى مرتفعة اعطنى مهلة أفكر فى الأمر .

والواقع ، أننى لم أكن في حالة صحية طيبة منذ يومين . وربما منذ اليوم الذى أمطرت فيه ديروط . امتلأ جسمى بالبقع الحمراء .

ولم أكن أعرف كيف غرقت فى النوم . وفى الصباح ،

استيقظت على صيحات وطلقات بنادق آتية من ناحية البندر جرجرت جسمى ، وذهبت إلى الشباك . لم أتبين شيئا . ولكن هناك تحت سمعت امرأتين تتحادثان . فارهفت السمع سألت احداهما الأخرى :

– أين تذهبين بهذا القمح الذى تضعيه فى حجرك ؟

واجابت الأخرى :

– الناس الآن احرار ، يا اختاه . اسرعى لتأخذى منه أنت أيضاً ، قبل أن يفرغ .

كانوا قد كسروا ابواب البنك ، وراحوا يوزعون فيما بينهم الحاصلات . كل يأخذ قدر ما وسعه .

عدت وهويت راقداً على فراشى . وعندما استيقظت وجدت المرأة التى تأتى لتغسل لنا الثياب واقفة عند رأسى . كان عرفه قد ارسلها لترعى شئونى . ولا أعرف ماذا قلت لها . كانت الحمى تلهب جسمى . خيل إلى انهم قد اعادوا تشغيل الورشة .

رُحت فى غيبوبة من جديد . وعندما استيقظت كان الوقت ليلاً . كان مصباحى يتدلى من السقف موقداً . وقد انحنى شخص يطل على بعمامة بيضاء ، وصدرية سوداء غزير شعر الصدر وشارية وخط المشيب بعض شعيراته ، وبشرته حفلت بالتجاعيد . أما اهدابه فلم يلحقها التغيير . واستردت فهمى .

قلت دامع العينين :

– أنت تحيا يا نور ، كل هذه السنين . .

هممت بالنهوض ، فلم استطع .

وقال لى :

– كنت أحيا هنا ، قريباً منك . وفى النهاية ، كان عرفة يخبئنى فى بيته .

– وقلت يا لك من رجل شجاع . . وكيف حال نمنم ؟

بللت الدموع اهدابه الطويلة . وقال .

– يخيل الى أننى اسمع سعاداً تسألنى عنه . انه بخير . يكبر كل يوم . ارسلته إلى بعض اصدقائى ، بعيداً عن هنا ليختبئ عندهم . ان الدنيا مليئة بالناس الطيبين . وهذا ما ادركته .

تناول منديلاً . غمسة فى الخل . ووضعه على جبينى . اطبقت عينى . أحسست بالتحس . ثم فتحتهما من جديد .

قال لى :

– أنت لم تتعرف على المرحومة أما هى فكانت تعرفك حق المعرفة . فى شبابها كانت تجلب قمح بيتهم وكنت تطحنه لهم . كانت تقول لك أنك رجل طيب . لأنك على حد قولها لم تكن تعاكس النساء اللاتى كن يحضرن . إلى وابور الطحين ، مثلما كان يفعل روزاكيس الذى كان أيضاً رجلاً متزوجاً وله اولاد

وقلت :

– لهذا السبب ، وصفه هيجلار بالحلوف .

– اما هى فكانت تصفه بالثعلب .

وأومأت اليه بنظرة من عينى . إلى ناحية الترعة والمحطة ، بالخارج :

– ماذا يجرى هناك ؟

وقال لى :

– لاشئ . انها قضية خاسرة . البنادق قليلة ، وهى فى أيدى الباشوات . سيتركون الشعب تتقطع انفاسه ثم يعودون يمتصون دمه .

– من تقصد بالشعب ؟ الفلاحين ؟

– هؤلاء بالأخص اقصد . ان حماى جاد الرب . .

وقاطعه قائلاً :

– تغيرت ، على ما أرى . .

– تعلمت الكثير . سنوات وسنوات أهيم الآن بالبلاد . وأول درس تعلمته من الباشا عندما ذهبت شكو اليه العمدة واعوانه . هل تريد أن تتعلم الكثير ، تعلم اذن ان تسمع . ماذا يقول الواحد وماذا يقول الآخر . ماذا يقول عرفة ، وماذا كان يقول له رئيسه الايطالى .

أخذ بطانية من الصوف ، ولفنى بها ، لفة محكمة . وقال لى :

– اسمع . أنت مصاب بالتيفوئيد . سأرسلك بمركب صغير إلى مستشفى اسيوط . لو بقيت هنا ستموت .

اظلمت الدنيا فى عيني من جديد دس ذراعيه من تحتى ، وأخذنى فى حضنه مثل طفل صغير . كم وخط المشيب شعره . قلت له :

– خاريكليا . . .

وقال لى :

– لا تشغل بالك بها سوف اهتم بأمرها . وبينما كان يجتاز بى الباب لمحت عيناى الدولاب ، فقلت له :

– نور . هناك ، فى الدولاب أربع بنادق بخراطيشها ربما احتاجت الظروف اليها .

دس انفه تحت ذقنى ، وطبع قبلة على رقبتى .

– يا أخى الحبيب . . .

ثم غاضت الدنيا من حولى . صارعت الموت عشرين يوماً . وعندما بدأت أعى ما يجرى حولى من جديد ، كانت قد جرت أمور جسام هناك فى ديروط .

الفصل الثالث عشر

عرف فى أسيوط أن المهندس الذى يعمل مع روزاكيس يرقد مريضاً بالمستشفى . جاءنى هيجلار ذات يوم . وقال لى :

– فلت من الموت باعجوبة ، يا بوليفيو . هيا ، استرد عافيتك ، كى نأخذك إلى خاريكليا .

وسألته :

– ماذا يجرى هناك ؟

فأجاب :

– هدوء . وضع الانجليز فى الابراهيمية أمام الطاحونة ، واقاموا هناك نادياً للضباط ، يقيمون سهرات راقصة فيه كل ليلة . وارسل اليهم روزاكيس البيانو من بيته ، ولاتكف بناته عن الرقص مع الجميع .

بدا لى الأمر كأكذوبة . أهو سكران هجلار ؟

وسألته :

– ومن فى يده مقاليد الأمور الآن ؟

– ومن غير كمانى واتباعه ؟

أما الباشا ، وزين ، والمحامى ، وشكسبير ، فهم جيرانك هنا ، مكبلين بالاغلال فى سجن أسيوط .

كنا نطلق اسم شكسبير على أحد ملاك الارض الزراعية ، ولم

يكن من كبارهم على أى حال ، تقع ارضه فيما بعد الدلجاوى . وكان قد درس فى إحدى الكليات الانجليزية ، وكان مغرماً بأعمال شكسبير ، وعنها يتحدث على الدوام .

سألت :

– وعرفة ؟

– افلت بجلده . هو فى الورشة كما كان ، وكما كنت تعرفه .

بدأت استجمع شجاعتى . ولكننى كنت خائفاً من أن أوجه اليه السؤال الذى يتردد فى اعماقى . ثم قلت :

– وهل سمعت شيئاً عن نور ؟

– بومبه ؟ لقد شنقوه . قضى الانجليز على خمسين من اولئك الكلاب . صدرت عليهم احكام عسكرية بالاعدام .

قلت :

– لايمكن ! لايمكن !

انكفأت على وسادتى . وسالت من عينى الدموع . كنت شديد الهزال .

وبعد اسبوع جاءنى هيجلار من جديد ، وأخذنى من المستشفى ، وانصرفنا . وقد استقبلونى فى ديروط بفرح كبير . واستقبلنى روزاكيس بآية من الكتاب المقدس عن قيامه لعازر من الاموات أما أنا ، فقد التصقت بخاريكليا وبقيت إلى جوارها . وكنت اتوق أن أبقى وحيداً مع عرفة حتى اتحدث معه . ولكنه كان

قد تغيّر . كان يتحاشانى . وصار يلزم الصمت شديد الانطواء على نفسه ، ولا يفتح فمه بكلمة . تزوغ نظراته على الدوام ، وقد امتلأت توجساً وخوفاً ينكب على العمل منذ شروق الشمس ، ولايرفع رأسه لالتقاء انفاسه طوال النهار . وعندما توجهت لمكالمته انتابته رجفة ابتدرنى قائلاً «أنس كل هذا . لا تبدأ من جديد ! انهم يروننا ! »

كانت قد بقيت اقطان كثيرة دون حلج فأخذنا نعمل ساعات اضافية ونسهر ليلاً . وقد جلبت حاشيتى إلى القاعة التى بها خاريكليا ، وكنت أنام واسمع فى نومى دقاتها الرتيبة . وذات ليلة . جـاء عـرفة وايقظنى ، سائلاً «هل لديك كونياك ؟ » احضرت له الزجاجة ، فشرب ، وزايله الخوف ، وانحلت عقدة لسانه .

فـــى ذات اللية التى وضعونى فيها فى المركب ، نزل زين من سرايه الصغيرة ، ممتطيا جواده ، ومعه قرابة ثلاثين من . رجاله على صهوة جيادهم مسلحــين ، وقد سار من ورائهم جمع من العاطلين ، واللصوص ، والقتلة ، والجياع ، والهاربيين من تنفيذ أحكام السجن عليهم اجتازوا الجسور مكفهرى الوجوه مضمرين للشر ، ودخلوا البندر ، واعملوا التخريب والتكسير . فتحوا محالى البقالة ، والمانيفاتوره ، والمقاهى ، وغيرها ، ونهبوا ما بها من بضاعة وأثاث ، واشعلوا فيها النيران . واختلفوا عند اقتسام الاسلاب ، ودبت بينهم المشاجرات . وكاد سوق المدينة أن يحترق

عن بكرة ابيه . وهرع المراكبية وصيادوا الاسماك ، وجلبوا الماء من النوبارية ، واطفأوا النيران ، قبل أن تأتى على المدنية كلها .

وفى الصباح ، ذهب أصحاب المحلات إلى الباشا لمقابلته فتركهم ينتظرون طويلاً ، لأنه كان فى اجتماع . ثم خرج اليهم وقال : «ماذا تريدون أن أفعل ؟ أن اتقاتل مع أخى ؟ الشعب جائع ، يجب أن تفهموا ذلك ، وهذا مصدر الشغب . من منكم يريد الامان ، فلينقل محله إلى هذا الجانب من الابراهيمية غرباً . سأعطيكم لأجل هذا الغرض زاوية الدلجاوى»

– تلك الأرض المتنازع عليها ، افهمت – «تبنون فيها محلاتكم وتقيمون السوق عليها . ونحن ، كيف اشرح لكم ، لسنا مثل عائلة كمانى تأخذ منكم اتاوات كى نقوم بحراسة متعلقاتكم . نحن اناس لدينا ما يكفينا . كما أن لدينا اهتمامات أكثر جدية» خرج الناس من عنده والتقوا بسليم . قالوا له «على أى حال ، طوال هذه السنين كنا ندفع لحراستنا دون أن تكون ثمة حاجة إلى ذلك . والآن ، عندما تأتى الساعة لذلك تتركنا بلا حماية» .

فقال لهم :

– وماذا استطيع أن أفعل لكم . أننى مستقيل .

– لديك البنادق . اعطها لنا .

وسأل سليم بخبث :

– وهل سترفعون السلاح على الباشا ؟

ولم يستطيعوا الاجابة . ولكن البعض استطر قائلاً :

– لن نستخدمها إلاّ لتأمين انفسنا .

علـى أن الباقين ، كانوا اناساً مسالمين ، ينعمون بالحياة فى الحرير والتطور ، وخافوا من اراقة الدماء . قرروا أن يحضروا مصابيح من بيوتهم ، ويسهر كل منهم امام متجره . ولكن اتباع زين عادوا بالليل واعملوا التخريب واشعال الحرائق . وعندئذ خرج بومبه من مكمنه ، وبصحبته قرابة اربعين رجلاً من المراكبية والعمال والتجار الجسوريين ، والفلاحين من جيران جاد الرب وشكسبير . وقد كان بحوزة نور ثلاث بنادق خاصة به ، بالاضافة إلى بنادق روزاكيس الاربعة . وكان مجموع مالدى هذا الجمع من بنادق عشر بنادق . أما بقية الذين خرجوا للتعدى للمعتدين فقد تسلحوا بالمدى والفؤوس والسكاكين أما عرفة فقد انفرد بتشغيل الورشة وأى معدن كانت تطوله يداه كان يحوله إلى سلاح .

اطلق اتباع زين بعض الاعيرة فى الهواء أول الأمـر ثم انسحبوا إلى الجسور ، ورافقهم زين . وعندما رأوا التغير الذى طرأ بدخول نور الدين ورجاله الاشداء إلى الساحة تراجعوا ، تفرقوا ، ثم اختفوا . ولم ينكص البعض عن الذهاب إلى سليم . هرعوا إلى منزله ، وايقظوه من النوم .

قال لبومبه :

– ايها الكلب . لم يخب ظنى انك لازلت على قيد الحياة . أين

كنت تختفى طوال هذا الوقت ؟

وانبرى له الآخر قائلاً :

– كنت أظنك أكثر ذكاءً ، يا سليم . لماذا رحت تحسب ساعات الذهاب والإياب عبر الصحراء ؟ الم تكن تعرف أن الجياد تجيد العوم ؟ . ولم أكن مجنوناً حتى أمر بأسيوط عارياً ، فاستدرت ونزلت بجوادى إلى الماء ، واجتزنا الترعة وخرجت من الناحية الخلفية لفيلاً «أبو سنة» . وكنت سأحضر لك رأسه ، ولكن المياه جرفته من بين يدى . كنت سألقيه هنا أمامك ، حتى تعرف ماذا يعنى أن تكون رجلاً .

لمعت عينى سليم ، وقال :

– تتباهى بماليس فيك . قل الآن ، لماذا ايقظتنى ؟

– البنادق !

أخرج سليم المفاتيح واعطاها له وقال :

– كل هذه الخسارة ، حتى تصبح من اتباع ذى الفك الملتوى ، زين ، ياللخسارة !

وقال له نور دون أن يبدو عليه الغضب :

– أنت واهم ، نحن نريد البنادق لاستخدامها ضد الانجليز . أن وابور البحر الذى هدم الكوم سوف يعود !

وهكذا أنشئ الحرس المدنى . وتولى المحامى القبطى جرجس حنا أمور التنظيم ، وسارت الأمور على ما يرام . وعينوا نور

رئيساً للحراس . ثم انعقد اجتماع فى فناء الباشا . واتضح سريعاً أن الاعيان وكبار الملاك واواسطهم والغالبية العظمى من صغار المزارعين كانوا فى صفه . وهذا مافعله أيضاً التجار والسماسرة ، لأن اتباع العمدة لم يحضر منهم أحد ، وبقوا خارج اللعبة ، وهكذا فإن أصحاب المتاجر والورش الصغيرة وصغار المزارعين اختاروا بومبه . وكان فى صفه بطبيعة الحال المراكبية وأصحاب عربات النقل ، وعمال عرفه ، وأن كانوا لم يحضروا جميعا وارسلوا مندوباً عنهم . وقد كان الموقف الذى وقفه شكسبير مثار الاعجاب ، فعلى الرغم أنه كان يقترب من كبار الملاك الا أنه أيد نور . تبادل الحاضرون القسم ، يتضافروا فى الجهاد من أجل استقلال الوطن . وخطب جرجس حنا فى الحاضرين وقال «من الآن فصاعدا ، سوف تسير الأمور على أفضل ما يرام» وطلب نور أن تحصى البنادق لكى يعرفوا أين يقفون . نهض زين وقال «الحرب مهمتى أنا . أما أنت فعليك السهر على سلامة الاستحكامات . ونريدكم أن تسلمونا البنادق ! » كاد أن يتبدد الوفاق . ونهض شكسبير ، وقال بعض الكلمات المتصفة بالحكمة ، وانقض الاجتماع ، وقد تظاهر الباشا طوال الوقت بأنه لايعرف بومبه . ولكنه كان يرمقه فى الخفاء ببعض النظرات التى تقطر سمّاً .

وفى اليوم التالى ، جاء نفر من صغار المزارعين لمقابلة

الباشا . وقال له :

– اصحيح ما دأب جرجس حنا المحامى على ترديده ؟

– وماذا يقول ؟

– يقول أنه ليس صحيحاً أن الضرائب قد الغيت ، وانما سندفعها الآن لجنابكم . هل هذا صحيح ؟

ارسلوا واستدعوا المحامى . لم يكن قد قال شيئاً من هذا القبيل . بل أنه على المقهى قال اثناء الثرثرة مع البعض الموجودين قال : «الآن عندما يدخل الباشا الوزارة لن تضيع أموال الشعب هدراً ، ولن تذهب إلى جيوب الاجانب»

وأوضحوا للفلاحين ما المقصود بذلك ، فقال هؤلاء

– نفس الشئ سيحدث . سندفع اذن الضرائب ، فما التغيير اذن ؟ »

وفى المساء ، كاد الشجار ينشبا بين نور وعرفة على المقهى ، وكان كثيرون ممن تعطلوا اعمالهم مجتمعين هناك . وقال عرفة :

– ما ان يسترد بوليفيو عافيته ، سنرسل اليه كى يحضر . كما سنحضر روزاكيس من الدير . لقد هدأت الاحوال ، الآن ، وآن الأوان أن يفرغ المحلج من حلج محصول هذا العام . كى يحصل الناس بعض الأجر يقيمون به أودهم .

وقال له نور :

– رويدك ، رويدك ، وهل انهت الاحداث بعد ، لازال امامنا

الكثير . ثم لماذا تتعجل العودة إلى عبودية العمل ؟

وقال عرفة :

– آه ، كلا . سوف نطالب باثنتى عشرة ساعة يومياً . انتهى وقت الاكاذيب .

وسأل نور :

– اثنتى عشرة ساعة يوميا ، حتى للفعلة واجراء الأرض ؟

وقال المراكبية الحاضرون :

– هذا وضع طبيعى .

واستطرد عرفة يقول :

– علينا الانخلط بين الأمور . أنى أتكلم عن العمال . أما هؤلاء الآخرون فهم فلاحون وليقرروا هم أمورهم فيما بينهم .

واستشاط نور غضباً ، وقال :

– ما هذا الذى تقول ؟ يسعى الباشوات للتفرقة بيننا . ولكن هؤلاء يتحدثون من منطلق مصالحهم . أما الآن ، فقد طلع علينا عرفة أيضاً . يا رجل ، لو لم نتضافر ونتحد ضد روزاكيس ضد من نتحد إذن ؟

وامسك من جلبابه أحد صانعى الاقناص ، كان يجلس ويستمع إلى كلامهم دون أن يدرك تماماً ابعاد ما يقولون . وقال :

– ضد السيد الذى يعمل لحسابه هذا الأجير . اسألوا ، منذا الذى بدلاً من جلباب واحد يملك جلبابين ؟ لا هو ، ولا سيده يملك

جلبابين ؟

وجد الآخرون أن نوراً كان على حق . «حقاً على النقابة أن تجاهد ، ولكن ضد من تجاهد ؟ » كانت هذه أول مرة يدور بخلدهم مثل هذا السؤال . وقد أحس عرفة بالحرج ، لأنه وجد نفسه وحيداً .

التفت وقال لنور :

– بالطبع ، منذ أن انصلحب أمورك مع حميك ، تنحاز على الدوام إلى صفوف الفلاحين .

حط الوجوم على الجميع وابتلعوا لعابهم . رفع نور كفية الكبيرين عاليا ، لكنه سارع إلى خفضهما إلى جنبيه . وكان الآخرون ينتظرون لكى يسمعوا ماذا سوف يقول . دس وجهه تحت وجه عرفة . وقال مقلداً له :

– اية ، دتيا !

لم يكن ذلك على الاطلاق متوقعاً . . . فانفجر الجميع فى الضحك ، لاتقان محاكاة نور للهجة عرفة وقوله المألوف عنه . ضحك عرفة بدوره . وضحك نور ايضاً لنجاحه فى ذلك .

الفصل الرابع عشر

مضت الأيام على هذا المنوال ، فى الانفعال والبطالة . وعض الجوع بطون الفقراء . وعند خزان اسيوط أخذ منسوب المياه ينخفض . ومضت المياه فى ترعة الابراهيمية تتناقص على . غير العادة . وكانت المدينة تعيش منعزلة عن العالم الآخر ، بلا قطارات ، ولا تلغراف . وكان الباشا يذيع من وقت لآخر خبراً ، ترى من كان يبلغه به ؟ «اتصلنا بالقاهرة . الانجليز ينقلون عتادهم إلى الاسكندرية . إنهم يرحلون ! وتتعالى الهتافات ، وتنهال الطلقات فى الهواء .

اذن ، فالأمور تسير على ما يرام . . الا أنه ذات مساءً نادوا على الناس أن تجتمع فى الفناء . وقد بدت فى نظرات الباشا امارات الانشغال والقلق كان يمسك فى يده مسبحة من مكة ، ذات حبات من العاج مثبته بمسامير من الفضة ، وكانت الحبات تفلت من اصابعه فيحدث ارتطامها اصوات ملحوظة .

قال «ايها المواطنون ، ايها المواطنون» ثم توقف واومأ إلى المحامى ليكمل الخطاب . فأخذ يقول :

– الكلام الكثير مورث للفقر . لقد حانت ساعة العمل . وقد ابلغنا رفاقنا بأسيوط أن الانجليز انزلوا باخرة نيلية قادمة من السودان محملة بالجند . بل أنها قد تحركت ايضا نحونا . وفى

صباح الغد ستكون قد وصلت إلى النوبارية . وربما مضت نازلة إلى أبعد من هنا ، وربما أيضاً توقفت عندنا . فلو توقفت عندنا فسنحاربها ، وسننتصر !

هللت الجموع وكبرت ، وراح الخفراء يطلقون أعيرتهم فى الهواء تباعاً واقتحم زين الجموع ووقف وسطهم واندفع يتكلم ، وقد سال اللعاب من فمه ذى الفك المعوج .

– لا تتركوها تمر ! فلنمسك بهم كم يكون عددهم ؟ مائه ، مائتان ، نحن الوف مؤلفة .

رفع شكسبير يديه ، وطلب الكلمة ، قال :

– فلنلزم الهدوء ، وارجو أن يعميهم الله فلا يرسون عندنا . فلسنا مستعدين للقتال .

ثارت ثائرة البدو ، وانقضوا على الرجل كى يفتكوا به . وراحوا ينعتونه بالانجليزى ، الجبان ، الخائن ، تدخل نور بينهم . ابتدره أحدهم قائلاً :

– سـلام عليك يا بومبه . فلتقل لنا كيف نبيد الانجليز ذوى السراويل الحمراء !

وتكلم نور بمنتهى التعقل :

– نرسل بعض الرجال لمراقبتهم من بعيد دون استخدام للسلاح . سوف يراقبون فقط ويخطروننا بما يرون . اما نحن فسوف نتحص جيداً داخل المدينة . وسنحاربهم من النوافذ . لو

كانوا مائة أو مائتين سوف نقضى عليهم واحداً تلو الآخر .

ارهف الباشا السمع ، وانصت بانتباه . ولكن البدو لم يوافقوا على الاطلاق . ودفعوا زين للكلام من جديد ، فقال :

- هذه المكيدة . سوف يمسكون بنا مثل جرذانٍ في المصيدة . لايجب أن نترك أحداً منهم يطؤ أرضنا . لن تكون حرباً تلك التى ستجرى فى الحوارى . لن تتصف بالرجولة !

وقال نور الذى ادرك ما يقال :

- حسنا . بامكان الفرسان أن يقطعوا على الانجليز خط الرجعة بعد نزولهم من الباخرة .

وصاح الآخرون :

- كلا ، كلا ، فليعطف حملة البنادق جميعاً بطول النهر ، حتى لانمكنهم من الخروج .

وطلب أحد تجار المانيفاتورة الكلمة . وقال :

- حتى هذه اللحظة كنت أعتبر بومبة رجلاً منا . أما الآن فقد ظهر على حقيقته ، مجرد مراكبى ، انظروا اليه . ولهذا فقد عاد يرتدى السروال الفضفاض . كل شئ ، من بيت ، وعتاد وبضاعة هى بالنسبة له على خشبة تطفو على الماء ، على مركب ولاشئ غير ذلك ، ولهذا فهو يذهب هنا ، ويذهب هناك ، اينما هبت الريح . لايخشى لصاً ، ولا يرهب حريقا . اما نحن ، فلو اننا أخذنا بما يقوله لنا ، فإننا سنجعل النار تشتعل وتحرق كل ما عندنا . لو

انزل الانجليز مدفعاً واحداً إلى هنا ، انمحت ديروط كلها ! أين الصواب فيما يقال ؟

لقد اوخلت الاشارة إلى ذلك المدفع الرعب فى القلوب درجحت كفة الميزان ناحية زين . واتخذ الباشا القرار . وقال :

– دعكم من هذه الحماقات . اولئك الذين يفهمون فى الحروب ، هم الذين سيتولون مقاليد الأمور .

وقال نور :

– كله من عند الله .

وقبل أن تشرق الشمس ، فى صبيعة اليوم التالى ، أخذ أهل القرى ينزلون ناحية الشط افواجاً . ارتدى الفلاحون افضل ثيابهم . وامسكوا بفوانيس مزركشة الأولوان ، كما لو كانوا فى رمضان . وفى المقدمة مضت مواكب الدراويش باعلامهم مطوية فى انتظار طلوع النهاركما لاحت أيضا اعلام حمراء بثلاثة أهلة . وتعالت دقات الطبول سريعة تارة وبطيئة تارة أخرى حتى تنتظم خطوات المشاة أما الناى فكان يعزف لحنه الحزين . وكان البدو وفرسان الباشا يشقون الحقول مثل ريح عاصفة ماضين من قرية إلى أخرى . يوقظون الناس من سباتهم ، ويسكتونهم بطلقات نارية فى الهواء ، ثم يحضون منصرفين مطلقين أصوات منكرة . كانوا يدفعون الجموع فى اتجاه الكوبرى . وكانوا قرويين أخذوا معهم اولادهم حتى لا يفوتهم الحدث الكبير . لم تكن معهم بنادق ،

فحملوا معهم فؤوسهم ومناجلهم ، وسكاكينهم ، ونبابيتهم ، وأى شئ كانت تطوله ايديهم من بيوتهم الفقيرة أو من مخازن الباشا العامرة . وعندما بدأت الشمس تشرق بدت النساء ايضا ، تسير فى صحبة ازواجهن هنيهة ، ثم يتجمعن ويقفن فى الحقول . وكن يحركن ايدين فى حركات رتيبة وينشدن بصوت شجنى ما كان اشبه بالمراثى . وكن يبقين الخلف ملتفات بثيابهن السوداء ، يضمن اليهن الاولاد الصغار الذين كانوا يريدون اللحاق بالمقاتلين من آبائهم .

اكتظت الكبارى والجسور بالناس ، وتعالى صخبهم مثل طنين النحل . وامتطى زين جواداً اسمر اللون رافعا يده مشيراً باصبعه إلى مجرى النهر ، مثل تمثال ابراهيم باشا بالقاهـرة وكانت بنادق الباشا تمضى قدماً فى الصف الأول .

ذهـب شكسبير إلى بيت عرفة ، وقابل بومبة . وجلسوا يناقشون الأمور بهدوء . أن بنادق الصيد لاتصلح للقتال . ولم يكن هناك وقت لصنع الرصاص . بل ولايعرف أحد كيف يصنع . اتفقوا على أن يبقى شكسبير بالمدنية مع عرفة ، لملاقاة الانجليز متى اتوا اليها . ببنادق ثلاثة شكسبير وأربعة أخرى ملك روزاكيس . أى كان معهما سبعة بنادق بالاضافة إلى بندقية ثابتة كانت لدى صاحب محل أحذية ولا يعلم من أين أتى بها . وكان زين قد سحب أربعة بنادق من الاثنتى عشرة التى كانت مع جماعة نور . وبقيت

البنادق العشرين التى كانت مع أعوان العمدة ، وكلها بين أيدى رجالٍ لا يرهبون الخطر . وأخذهم نور معه ورحلوا .

كانت الشمس عمودية على الكوم ، عندما وصلت الباخرة إلى الترعة فى صمت . ولم يكن لهذه عجلات ولا اسوار ، بل مجرد مدخنة . أما بقية المساحة فكانت مغطاة بالألواح الحديدية . وقفت هناك منطوية على نفسها وراحت تنظر إلى الناس . من خلال كواتها الصغيرة . وبدت فى مجموعها شيئاً شرساً للغاية .

وتزايـد اقبال الجموع وكانوا يخترقون الحقول حتى يدركوا ما سوف يحدث . ومن بعيد فى المؤخرة كان آخرون كثيرون قادمون من طريق النوبارية . وتأخر زين . نشر الدراويش اعلامهم ، وأخذوا يكبرون ببطء . ثم انخرطوا فى تكبير سريع ، وبدلت أصواتهم وكأنها تدخل الامان فى القلوب . ورفع الناس اسلحتهم عالياً ، ومضوا يصيحون . وأخذ البدو يروحون ويجيئون على ظهور جيادهم ، يجرون بسرعة وعنف ، ويوقعون فى غروهم ورواحهم بعض الناس ارضا . يهجمون ويخوضون فى الماء ثم بغتة يقفلون راجعين .

انسحب نور ورجاله ناحية الجنوب عثر على خندق صغير ، فأمرهم بالتجمع والاختباء فيه . وقـال لهم «لاتبددوا رصاصكم . عندما ترونهم ينزلون إلى القوارب ، انتظروا قليلاً ، ثم صوبوا بنادقكم نحوهم ، واضربوا فى المليان» ولكن القوارب لم تظهر .

نفذ صبر الاهالى ، من طول التأهب والانتظار ولا قائمة لزين بينهم . وأخذ البعض يطلق رصاصات متفرقة نحو الباخرة . وكلما أصابت بعض طلقات البدو سطح الباخرة الحديدى ، أحدثت اصواتاً كضربات السياط ، فكانت الجموع تنخرط فى التصفيق . وفجأة مرّ فوق رؤوسهم مندفعاً هذه الطيور قادمة من الجنوب هاربة من ارتفاع حرارة الجو هناك ، قاصدة أجواء غربية رطبة . وصوب واحد بندقيته وأطلق رصاصة أصابت طائراً من السمان ، فوقع فى لجة الماء . وعند مرور السرب الثالث أطلق آخرون رصاصهم على السمان ، فوقع بعض منه بين الناس . وتشاجروا فيما بينهم وتضاربوا للظفر بالصيد .

وخاص البعض الماء حتى ركبتيه ، وتوغل البعض حتى الوسط ، ونفد صبر البعض فخلعوا ثيابهم ، وأمسكوا بسكين بين أسنانهم . وراحوا يسبِّحون . وقع بصر نور عليهم ، هز رأسه ، ثم لوح بيده ، وقال لرجاله : «لاشأن لكن بهم . انتظروا»

وصل إلى المكان جمع آخر وقال أحدهم أن زين كان معهم وظهوره وشيك . وسمع صوت يقول «فلنستولى عليها قبل أن تأتى» خاص الدراويش فى الماء ، ومن ورائهم هجمت الجموع وبعد بضعة أمتار توقفوا عن المسير فى اللجة وقد ابتلت ثيابهم ، فتوقف من ورائهم آخرين ، وهؤلاء أوقفوا صفوفاً نزلت إلى الماء من ورائهم ، امسكوا بسلاحهم رافعين اياه إلى أعلى .

وعندئذ كشفت الرشاشات عن فوهاتها من مكامنها الحصنية بالباخرة . تتابعث منها الطلقات سريعة وأمطرت الناس بوابل من الرصاص ، فاطلقوا صرخة اندهاش ، وامتلأ النيل بالجثث والمصابين بدت من فى المقدمة صيحات تقول «انها تمطر ناراً» وشرعوا فى التقهقر إلى الوراء . اختلطوا بالآخرين ودب بينهم الهرج . وهم فى الماء ، وراح الرصاص يحصدهم حصداً .

انتاب الناس رعب وهلع وانكمشوا متراجعين ، ثم طلقوا لسيقانهم العنان . وصاحوا مبهورى الانفاس «ابتعدوا ، يتساقط علينا الرصاص ، ابتعدوا ! » . وكانوا يخلعون جلابيهم المبتلة وهم يجرون حتى لاتعرقهم الحركة بينما كان من طريق النوبارية لازال يفد آخــرون ، فسرت موجة الرعب فيهم بدورهـم . وبعد قليل ، لم يبق فى المكان سوى الموتى والجرحى وراح التيار يقذف إلى الشط من الضحايا ولم يبق سوى البعض على صهوة جيادهم ، ينظرون باحتقار خلفهم إلى الناحية التى هربت منها الجموع . ولكن مالبث أن صوب الجنود من الباخرة الرصاص عليهم ، واردوهم واحداً واحداً صرعى من على جيادهم . ومن بقى منهم على قيد الحياة جمعوا الاسلحة وقفزوا على ما بقى صاحياً من الجياد ، وأطلقوا صيحة شقت سكون المكان ، وانطلقوا متبعدين .

خيم الصمت ، وفتحت الباخرة بواباتها الحديدية فى صخب ، وظهرت القوارب مليئة بالجنود ، وانزلت فى بطءٍ شديد إلى الماء

ببكرات كبيرة . وقال نور لرجاله «انتظروا . اتركوهم يقتربون»
وعندما وصل القارب الأول إلى خمسين متراً من الشط ، قال نور
«والآن ، اضربوا فى المليان» وانطلقت البنادق كلها فى آن واحد .
ثم عمرت بالرصاص من جديد . وانطلقت من جديد . سمعوا شيئاً
يندفع نحوهم فوق رؤوسهم مصفرا . ورأوا جسماً ملتهباً . وقد
صمت آذانهم من شدة الدوى . وغمرهم الوحل . وضعوا الرصاص
فى بنادقهم مرة أخرى وأطلقوها . سقطت شظايا القنبلة الثانية
فـى خندقهم . قال نور «أنه مدفع . كان تاجر المانيفاتورة على
حق . تفرقوا» ثم صاح فيمن بقى أحياء من رجاله «اخرجوا ، من
هنا ، ولكن متفرقين ! » عادت القوارب إلى الباخرة ، ولكن القذائف
مضت تتوالى .

وصاح نور :

– انسحبوا خذوا بنادقكم ، وشقوا طريقكم عبر الحقول ،
تراجعوا خفيضى الرؤوس ! »

ومن الباخرة ، مضى الآخرون يطلقون عليهم القذائف ولم
يصل النوبارية من مجموعة نور سوى ستة . القوا ببنادقهم فى
الترعة ، وسبحوا إلى الضفة الأخرى فى نواحى جاد الرب .

مضى عرفة وشكسبير فى المدينة ينظرن . رأيا الجموع تصل
مثل فيضان ، وتمضى فى اتجاه اراضى الباشا . فهما حقيقة
الأمر . كان زين لازال مختفياً وكذلك كان الباشا بدوره . اما

جرجس حنا فقد فقد طربوشه ونظارته فى الزحام . كان يشد شعره الأحمر ، ويبسط يداه مثل المصلوب . وكان يبكى .

لم يعرف أحد ماذا حدث لنور . وقال شكسبير «سأذهب إلى الضيعة لأخبئ البنادق» وتناول عرفة جوالاً ، ولف فيه بنادق روزاكيس الأربعة ، وضعها على عربة يد ، ومضى يدفعها ماضياً فى أثر الجموع التى راحت تجتاز الجسور بكثافة وقد علاها الوجوم والصمت . مروا أمام المحلج ، ونكسوا الرؤوس وما كانوا يقفون قط ليلتفتوا وراءهم كى يروا ما يجرى هناك . أما عرفة فقد وضع البنادق فى الدولاب ، وجلس ينتظر .

وخرج اعوان العمدة من حجورهم ، ومضوا يجمعون السكاكين والخناجر والعصى من الشوارع . وعندما وصل الجيش ، كان عمر الثعلب يجمع مقاليد الأمور بين يديه . بالليل ، ذهب إلى قرية جاد الرب رجل من اتباع سليم ، ومعه مندوب انجليزى ، وقبضوا على بعض الرجال ، وكان منهم بومبه .

الفصل الخامس عشر

سنوات طوال لم ير أهل تلك المنطقة صقوراً . أما الآن ، فقد كانت سماؤهم مليئة بها . تطير فى دوائر على ارتفاعات عالية ، وتحوم فى هدوء شديد كما فى الاحلام ، فوق النهر وفوق معسكر الانجليز ، كأنها تعلمت عاداتهم . وعندما كانوا يذهبون إلى دير مواس ومنفلوط كانت تتبعهم ، وتطلق صيحاتها المزعجة التى كانت تخيف سليم ، وتذكره بضحكات عجوز مجنونة كان يقف ساعات يراقبها ، وكانت تحتقن من جراء ذلك عيناه ، وتحمران كعيون القتلة .

وتتباعث الايام مشحونة باحداث أخرى . تارة ، كان الانجليز ، يهاجمون البيوت يفتشون عن الاسلحة ، وتارة كانوا يطلقون النار على الناس عند أدنى حركة . فيستبد الرعب بالفلاحين ويعمدون إلى الاختباء . أما من لم يكن يسعفهم الوقت ، فكانوا يتسلق النخيل ، فيصوب اليهم الانجليز بنادقهم دون وازع أو ضمير ويردونهم قتلى وكأنهم يصطادون اليمام . واستمرت المذبحة أربعة أيام . وبعد ذلك ، تركوا سليما ليدفن الجثث بالجملة .

واحضروا الباشا وزين وجرجس حنا مكبلين بالكلبشات كانت هذه هى اللجنة التى ذكرها فى الصحف الانجليزية ، ثم نقلوهم

إلى الباخرة ، حيث القوا بهم فى قبوها . وعلم شكسبير بالاحداث فتقدم وسلم نفسه وكان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، فقبضوا عليه بدوره وارسلوه إلى الباخرة . ومن هناك نقلوهم إلى سجن اسيوط لمحاكمهم .

وبعد كل هذا الوقت انعقد اجتماع بدار العمدة كمانى . وتكلم العمدة فى الاجتماع قائلا :

– نادانى الكولونيل . يريدنى أن أعد له كشفا باسماء مائة من المتسببين فى مذبحة القطار . خمسون منهم ، شيشنقون ، والخمسون الباقون سيحكم عليهم بالاشغال الشاقة . وسوف يحكمون ببراءة البعض بطبيعة الحال .

واحضروا ورقاً وقلماً ، وكلفوا اصغر الابناء أن يكتب . وبدأوا بذكر الاسماء الكبيرة .

عاد عمر يقول :

– كلا . لقد أوضح لى الانجليزى بعض الأمور . انهم «شخصيات سياسية» وهؤلاء لهم حساب آخر . انه يريد اسماء أوغاد مشاغبين .

التفتت الانظار إلى سليم . أنه يعرفهم . اخفى وجهه بيديه كى يركز ذهنه . وذكر حوالى عشرة اسماء ، ناطقاً الاسماء ببطء وكلها لمجرمين وعاطلين . ثم توقف لايذكر غيرهم . كانت ذاكرته لاترى فيمن حضروا الاحداث بالمحطة سوى أصحاب لمحلات .

واردف عزير ، ورصص اسماءً واسماءً . وفجأة قال سليم :

– نور الدين لم يكن فى المحطة لو كنت رأيته لقبضت عليه فى الحال .

تبادل أتباع العمدة النظرات . وقال له عمر :

– ماذا جرى لك ؟

وأجاب سليم بمنتهى الهدوء :

– لاشئ . . أقول لك فحسب أن بومبة لم يكن بالمحطة ولا كان أيضاً هناك .

تبادل أهل العمدة النظرات . وضم عليهم الصمت . ولمعت عينا عمر الثعلب خبثاً ودهاءً . وقال لمحرر الكشف :

– أكتب . . ولا تلتفت لأحد لدى مخطط لذلك .

بقى سليم ساكناً . يستمع ، ويتفحص بنظراته الرسوم المشغولة على السجادة . وعندما فرغوا من اعداد الكشف قال لهم عمر :

– اخبرنى الكولونيل أيضاً أنه يجب أن يحضر محامون للدفاع عنهم ، سداً للرماد فى العيون . وسوف ننصّب حسن وحسنين لهذه المهمة من لديه نقود ، فليدفع . أفهمتم ؟ ولكـن عندما يأتى دور نور سيدافعان عنه بكل مالديهم من جهد . سوف يطلبان سهامة روزاكيس فقد انقد له الوابور . واننا بانقاذنا رأس بومبه من حبل المشنقة سنضمن إلى جانبنا رجال روزاكيس جميعاً وبعد

ذلك سنتفرغ للباشا ، لو افلت بجلده .

وقال سليم :

- سوف نطالب بانقاذ رأس عرفة أيضاً وسأل العمدة بصوت عصبى :

- وما الذى تريد رأس عرفه من أجله ؟

- أن ننقذه !

وقال عمر بصوت مشوب بالسخرية :

- حسنا ، ورأس عرفة أيضا . مادام شيخ البلد يريد ذلك . ويجب أن تعرف من الآن إنك فى القضية سوف تكون أنت شاهد الاثبات القضية سوف تكون أنت شاهد الاثبات الأول . لقد كنت موجوداً بالمحطة .

وقال سليم :

- حاضر .

وبدأ تجهيز المشانق فى فناء السجن وكانت الزنازين مزدحمة بالمساجين مثل السردين فى العلب . وتسلق نور إلى نافذة الزنزانة يستنشق بعض الهواء النقى . وأطل على المشانق المرصوصة . وقال لعرفة :

- ياه كل هذه الأشرعة ! لم أر حتى فى ميناء روض الفرج مثل هذا العدد !

ولم يجد عرفة هذا المزاح على الاطلاق ظريفاً ، وكان يرتعد

خوفاً .

وفى يوم الجلسة رأى روزاكيس واقفاً بعيداً بسترة من التيل بيضاء مكوية . فقد كان اليوم يصادف ايضاً عيداً من أعياد اليونانيين والتفت نور إلى عرفة وقال :

- راح كل شئ هدراً . الثعلب لم يكفه أن يفترس المراكب الثلاثة . انه لن يشبع الا بافتراس انسانٍ حى .

اقشعـــر بدن عرفة ، وابتعد من جوار صديقه التقت انظاره بانظار روزاكيس ، واومأ له برأسه ايماءة خفيفة وجلة . لم يستطيع عرفة أن يرفع يديه لأنهما مكبلين بالاصفاد . وظل روزاكيس بلا حراك ، ينظر اليه بعينين كما لو كانا من زجاج .

وقد حدد القضاه العسكريون دقائق لكل قضية ، وساعة للاستراحة . وفى خلال ست ساعات سيكون كل شئ قد انتهى ، وذلك قبل أن تغرب الشمس . ولكنهم عندما شرعوا ينظرون القضـايا بسرعة أكبر . وقف سليم مشدود القامة إلى جوار النافذة . وكان يوجه اليه الكولونيل نظرات متسائلة فكان يهز رأسه بالاجابة .

ويصدر الحكم . «ناد على المتهم التالى ! » كان سليم يقف بجوار النافذة ، ويتطلع منها عاليا إلى الصقور التى تدور وتدور فى السماء من فوقهم .

ووصلوا إلى اسم بومبة . وضع الاستاذ حسن الكمانى يده

على المنضدة وأوقف آلة الاعدام الجهنمية . ونادت المحكمة روزاكيس لسماع شهادته . واحضروا له انجيلاً قبطياً ، وحلف على اليمين ، وتأهب للاداء بشهادته على يتولى ترجمان الترجمة . وسأل الكولونيل السؤال المعهود هل كان نور بالمحطة يوم المذبحة . وأومأ سليم برأسه «كلا» واحنى القضاة الانجليز رؤوسهم وتداولوا واجروا المداولة . وسأل الاستاذ حسن :

– يا خواجة روزاكيس ، قل لنا منذا الذى حافظ على محلجك ضد اللصوص ؟

وأجرى المترجم الترجمة . وكان سليم يتطلع إلى السماء . ابتسم روزاكيس وقال بالعربية :

– آمل أن تكون قضية القتل قد شطبت .

لم يدرك المترجم ما الذى يقصده روزاكيس باجابته وكرر روزاكيس عبارته . ونقلها الترجمان إلى القضاه . فجاء خطاب المحكمة .

– انهم يرجونك أن تلتزم الرد فى حدود ما سألك عنه المحامى .

تنهد روزاكيس وقال :

– محلجى قام بحراسته واحد من عمالى ، اسمه عرفه – واشار اليه باصبعه ضمن جموع المتهمين الماثلين فى القفص – تركت له أربعة بنادق ، عندما غادرت المحلج ، ووجدتها فى الخزانة

كما تركتها . أما بالنسبة لبومبة فأنا لا أعرف شيئاً . فهو كان مختبئاً منذ أن قتل مستر كوكسون !

اضطرب القضاه العسكريون ما ان سمعوا ترجمة ما اولى من شهادة طلبوا من حسن والترجمان أن يقتربا منهم . وتبادلوا النقاش . اخرج سليم منديله ومسح عرقه . كرمش الانجليز أنوفهم مثلما تفعل الارانب . ضايق الانجليز رائحة المسك وبحركة من يده انهى الكولونيل القضية : اعدام المتهم التالى !

هم روزاكيس بالانصراف . فتح نور شفتيه المزمومتين ، ولم يكن قد انزل عينيه من عليه : وقال له :

- يا يهــوذا . يا عبد المال ، وتابع الشيطان ! ليس لك من قلب ، بل كل همك كيس تجمع فيه النقود والجنيهات ولكن أين لك من مفر ؟ شققت طريقك تمتص دماء العامل والفلاح . وجمعت ثروتك من الحرام مهلك ، وسوف ترى كيف لا ينفع ولا يبقى المال الحرام . مهلك ! مثل الذئاب سينقض اولادك كل منهم على الآخر ، وهم يقسمون تركتك لأنك لم تعلمهم أن هناك الهاً آخر غير الذهب ، وليس هناك عبادة أخرى غير عبادة الذهب . لدى أنا أيضاً ابن . وأن لم تلقى عقابك من الشعب ، فسيكون عقابك على يديه هو .

وكان يريد أن يقول اشياء أخرى ، ولكنهم كمموا فمه وأخذوه خارجاً . .

وفــى المساء ، افرج عن عرفة دون أن يرى نوراً وفى ذات

اللية ، قبيل الفجر ، نفذوا أحكام الاعدام . شقوا حفرة كبيرة فى فناء السجن والقوا بجثثهم داخلها . ولكن يبقى شئ ، عندما أحصوا الجثث وجدوها تسعة وأربعين جثة بينما المؤشر أمام اسمائهم بالاعدام فى أوراق الانجليز خمسون . احصوها ثانية فوجدوها مرة أخرى تسعة واربعين . كان ثمة جثة ناقصة . واحصوا الجثث للمرة الثالثة فوجودها من جديد تسعة واربعين .

اشرق ضوء النهار . غرفت ديروط فى بئر أسود وفى السوق كله مضى أصحاب المحلات يقولون للمشترين . ثم شنقهم وقضى الأمر» انتاب الجميع الأسى والرعب . ولكن ذلك الذى لم توجد جثته كان بمثابة شمعة ذهبية تخفف من وطأة الظلام المهول .

الفصل السادس عشر

قال بوليفيو :

- اوشك أن انتهى من حكايتى . بقى القليل وستلحق بقطار عودتك .

ولما اخبرنى عرفة بكل شئ ثم صمت . امسكت بزراعه . وقلت له :

- لايحتاج الأمر إلى تفكير كبير الذى لم يجدوه هو انت .

وقال لى باكيا ، وكان قد سكر

- كلا ، استبدلنى الانجليزى بآخر . أجل ، وقد ذكروه لى . أنه الجمال الاسود الذى يعمل بالمحطة ، والذى كان يأتى بالنساء للمسافرين اتذكره ؟

فقلت له :

- اذن . . ربما كان . .

ونهضت واقفاً .

- بومبه !

وانفجر عرفه وسط دموعه قائلاً :

- كلا ، كلا ، لقد شنقوه . ولا أعرف . لا أعرف من بعده ماذا أفعل كلا ، لا تحدق فى هكذا . أقول لك كلا . اننى لا أخفيه عندى بل أمضى انتظره وانتظره ، ولكنه لايسمع له صوت . لقد

شنقوه أنا الذى شنقته ! يتملكنى الخوف . صرت فاقداً للنوم . وأوشك على الجنون .

ولكن منذا الذى كان بامكانه أن يخلص نوراً من براثن الانجليز ؟ ربما . . ربما . . لـو أراد ذلك واراد بقوة بشدة . . سليم ، سليم وحده ولكن لماذا يعرض نفسه للخطر ؟ ما مصلحته فى ذلك ؟ فى كل مرة ، حاول فيها اناس أن يسألوه دون تطرق إلى التفاصيل ، كانت اجابته واحدة لاتتغير . «رحمة الله ! » وهو ما يعنى : أنه مات ، وماذا يعنى هذا غير ذلك ؟

ولم يفقد عرفه صوابه وانما القى بنفسه فى الشراب واتى الانجليز إلى ديروط بباخرة نهرية عبر الابراهيمية . وقد كانت هذه الباخرة مثار اعجاب هيجلار ايضا . وارسوها أمام فناء روزاكيس . وكانوا يقيمون عليها الحفلات كل ليلة . كما كانوا يبعثون بصناديق الويسكى إلى روزاكيس .

وذات يوم ، ضبطتُ عرفة يمد يده مختلساً بعض زجاجات الخمر . وقلت له منتهراً :

– أنت تفعل ذلك ؟ الا تخجل من نفسك ؟ أنت ؟ أنت ؟

فأجابنى قائلاً :

– انى خائف ، ولهذا أشرب ، كى اشعر بالدفء .

ومع مضى الوقت ، تغيرت الأوضاع فى القاهرة ، وصدر أمر بالعفو . فاطلقوا سراح المسجونين بسجن أسيوط . ورجع إلى

ديروط من كانوا مسجونين من أهلها ، استقبلهم الشعب بحفاوة بالغة ممسكين بسعف النخيل . وذهب آل كمانى إلى الاستقبال ، وأخذوا بالاحضان الباشا ، وزين ، وجرجس حنا . وأقام الباشا حفلاً كبيراً بهذه المناسبة ، وسط مائدة لم يسبق لها مثيل ، اتسعت لما يقرب من خمسمائة شخص .

انفلت شكسبير من الجموع ، وتسلل إلى غرفتى ، يسأل عن عرفة . وتعانقا أمامى وانخرطا فى البكاء .

وكان عرفة يقول :

– غير موجود . . غير موجود . وكان يطيب الآخر خاطرة قالاً :

– بل هو موجود . لا تقنط من رحمته ستتغير الاحوال ، ويأتى زمن غير هذا الزمن . اتذكر ماذا كان يقول : البنادق قليلة . . وهى فى أيدى الباشوات هذا ما يجب أن يتغير !

ولكن عرفة ما عاد يصدق شيئاً . وبعد قليل ، ذهب إلى الدير ، وأغلق على نفسه الباب هناك ، وأصبح راهبا . واشترى روزاكيس من الحكومة أرض الدلجاوى المتنازع عليها بثمن بخس . أدعى أنه يشتريها لتصبح أرضه مساحة مربعة . وقال له كل من الباشا والعمدة «حلال عليك . مبروك» لكن كلاً منهما كان يغلى غيظاً بداخله . وكان ذلك رمزاً فقد أصبح لليونانى الثرى حظوة لدى الانجليز ونفوذ لدى الحكومة . وهكذا دخل فى اللعبة طرف ثالث ،

ومن الآن فصاعداً ستصير اللعبة أكثر تعقيداً .

ثم رحل الانجليز عن ديروط . وأخذوا معهم الباخرة النيلية ، أو بعبارة أخرى ناديهم . وبعد فترة من الزمن ، أو عز روزاكيس إلى بعض اليونانيين أن يقترحـوا على الزواج من ابنته الكبرى . تغابيت ، وتظاهرت بأنني لا أفهم . وهل سآخذ أنا نفاية من نفايات الانجليز زوجة لى ؟ قد تقول لى وثروتها ؟ وأقول لك ، لقد لعنها بومبه ، وستظل مثقلة بلعنته ؟ ورضيت بأن أبقى عبداً لخاريكليا . وفى العام التالى ، عثرت لنفسى على بنت طيبة فقيرة من المنيا . وتزوجنا . وفى عام ١٩٢٢ انجبنا بنتاً اسميناها أورانيا . وفى عام ١٩٢٤ رزقنا بولدٍ سميناه فوتى .

وتمتمت قائلاً :

– اورانيا تعنى «سعاد» ، وفوتى يعنى «نور»

– ارتسمت على وجه بوليفيو ابتسامة شجنية لكن عينيه كانتا تقدحان مع ذلك شرراً . وقال :

– ايها الرجل الطيب بومبة . دعواتك ، ولعناتك ، كلها تحققت . اقتتل ورثة روزاكيس مثل الذئاب عند توزيع تركته . والباشا ، بعد أن كان يمتلك ثلاثة آلاف فدانٍ ، وعشرة قرى ، لم يبق له سوى مائتى فدانٍ ، وهذه مثقلة بالديون أيضاً . والآن ، أصبحت البنادق فـى أيدى الشعـب سوف يرى هذا البلد بدوره بركات الله تحل عليه .

لزمت الصمت . ونهض بوليفيو والقى نظرة على خاريكليا ليتأكد من سلامة ادائها لعملها . ثم سألته .

– وابنه ؟ ما أخباره ؟

– آه ، نمنم . . . لابد أنه من سنك الآن .

ركبنا العربة ذات الحصان ، واسرعنا إلى المحطة لالحق بقطارى . وكان الليل معتقاً بأريج الزهر .